حسن بن موسى الصفار

أئمة أهل البيت عليهم السلام

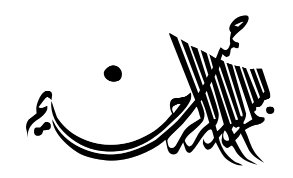
رسالة وجهاد

أئمة أهل البيت عليهم السلام

رسالة وجهاد

الطبعة الثالثة

١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م



﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ
شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۞ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ
حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۞ إِنَّمَا
نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً
وَلَا شُكُورًا ۞ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا
عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۞ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ
الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۞ وَجَزَاهُمْ
بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾

صدق الله العلي العظيم

سورة الإنسان: الآية ٧ـ١٢

المحتويات

شبابنا.. وأئمة أهل البيت

الطفل الذي يولد في بيئة دينية محافظة، حينما يفتح عينيه، وينشق سمعه، ويتفق إحساسه، يلاحظ الكثير من مظاهر التقديس والولاء لأئمة أهل البيت الطاهرين ، من قبل أهله ومجتمعه.

فأبوه حينما يذكر اسم الإمام علي أو الإمام الحسن أو أي إمام آخر، يردفه فوراً بعبارات الثناء والتمجيد.

وأمه حينما تواجهها أية مشكلة أو صعوبة تهرع إلى التوسل بأحد الأئمة إلى الله قائلة: «إلهي بحق الحسين، إلهي بحق ضامن الجنة» الخ.

وفي مناسبات ذكريات الأئمة كمحرم وصفر، يلاحظ الطفل انقلاباً شاملاً، وتغييراً على حياة أهله وبيئته، حيث يعيش المجتمع برنامجاً خاصاً أيام عاشوراء والوفيات: فيحافظ على أوقات العزاء، ويتنازل عن العمل بعض الأيام، وتغيب عن أجواء المجتمع مظاهر الفرح والبهجة، فلا زواج، ولا

حفلات، ولا أفراح، أيام المحرم، وتسود الناس مظاهر الحزن والكآبة، كل ذلك من أجل الإمام الحسين وباقي الأئمة.

يلاحظ الطفل هذه المظاهر ويعيشها، فتخلق في نفسه تقديساً عفوياً للأئمة، الذين تتردد على مسامعه أسماؤهم، ويشارك في إحياء شعائرهم وذكرياتهم مع والديه ومجتمعه.

وينغرس في قلبه حب الأئمة واحترامهم، دون أن يعرف بعد أي شيء عن حياة هؤلاء الأئمة، أو دورهم، أو المؤهلات التي جعلت لهم كل هذا الاهتمام والتقديس.

ويكبر الطفل ويترعرع، ويدخل المدرسة، ويبدأ مشوار العلم الطويل: طاوياً مراحل الدراسة، مرحلة فمرحلة، وفصلاً ففصلاً، ويدرس مختلف العلوم والمعارف، ثم يلتقي بوسائل الإعلام والثقافة المتوفرة في المجتمع، من إذاعة وفضائيات وصحافة، ويتعرف خلال دراسته وثقافته على شخصيات التاريخ، ورجال العلم ويقرأ عن مهماتهم وخدماتهم، التي قدموها للإنسانية، واستحقوا بها الإكبار والاحترام.

وفجأة يقفز أمامه سؤال عريض يقول:

أين مكان الأئمة في التاريخ؟

أين دورهم في الحياة؟

أين إنجازاتهم في ميدان العلم؟.

لقد درس التاريخ في المدرسة فلم ير للأئمة مكاناً على عروش الخلافة، أو كراسي الحكم: فالخلفاء الذين تحدثت له التاريخ عنهم هم: الأمويون، العباسيون، العثمانيون!.

وقد قرأ سجل الفتوحات الإسلامية، وتعرف على مشاهير الأبطال الفاتحين: كخالد بن الوليد، المثنى بن حارثة، سعد بن أبي وقاص، طارق بن زياد، موسى بن نصير، صلاح الدين الأيوبي، ولكنه لم ير للأئمة دوراً في قيادة الجيوش، أو مساهمة في معارك الفتوحات!.

ويدرس كتاب العلوم، فلا يجد للأئمة اسماً في قائمة العلماء والمكتشفين والمخترعين، إلى جنب اسم: باستور مكتشف الميكروب، أديسون مكتشف الكهرباء، إسحاق نيوتن مكتشف الجاذبية، وغيرهم وغيرهم!.

ويتساءل: إذاً فلماذا نقدّس الأئمة؟.

ولماذا هذا الاهتمام الضخم الذي يبديه أهلي ومجتمعي تجاههم؟.

فمن المعقول جداً أن نقدس أحد الخلفاء، لأنه تحمل أعباء قيادة الأمة، وسهر على مصالحها لفترة من الزمن، وان نهتم بأحد الفاتحين، لأنه وسّع رقعة الدولة الإسلامية، وساهم في نشر الإسلام، وأن نُكبِر أحد المكتشفين، لأنه خدم البشرية باكتشافه.

أما الأئمة فلماذا نعظمهم ونقدسهم؟ وما هم إلا مجموعة من الزهاد العبّاد، جاؤوا قبل ثلاثة عشر قرناً، وقضوا حياتهم بالصلاة والدعاء، ثم ماتوا، وأكل الدهر عليهم وشرب.

في مثل هذا الوقت يعصف به تيار التشكيك والانحراف، صارخاً في وجهه: أما آن لك أن تدرك رجعية اهلك، وسخافة تقاليدهم؟ ألم تتأكد من جمودهم على تقديس شخصيات تاريخية، لم يكن لها دور في الماضي، ولا أثر في الحاضر؟.

ويحتدم الصراع عنيفاً داخل نفس الشاب المسكين، بين تربيته ودراسته، بين تقاليده وثقافته، وتتدخل روح الرفض التي توفرها له مرحلة الشباب، فيرفض تربيته، ويتمرد على تقاليده، ويسخر من شعائر دينه.

طبعاً سوف يُغضب أهله وكبار مجتمعه بسلوكه المتمرد، وتصرفاته الساخرة، وسيحكمون بكفره وانحرافه، بينما يتمادى هو في تحديه وتمرده، وهكذا وببساطة يتساقط أبناؤنا في قاع الضلال، ويتيه شبابنا في صحراء الانحراف.

ولو فكرنا في الأمر جيداً، لوجدنا أن أساس المشكلة هو عدم فهم هذا الشاب الناشئ لمفاهيم دينه، وعدم وعيه بتاريخه ومبادئه، إنه شاهد أثناء طفولته شعائر الدين، ولكنه

لم يعرف خلفياتها، إنه لاحظ الإطار ولم يدرك المحتوى، ورأى البرواز ولم ير الصورة.

رأى أهله يقدسون الأئمة دون أن يعرف هو شيئاً عن حياة الأئمة، ودورهم في الحياة، اللهم إلا لقطات تاريخية باهتة، يسمعها عن عبادة الأئمة، أو معجزاتهم، قد تزيد في نفوره واشمئزازه، حينما تعرض بشكل عاطفي مشوه.

وهنا يأتي دورنا ومسئوليتنا، في القيام بتوعية الناشئة، وتعريفهم بحياة أئمتهم، ودورهم في التاريخ، ومنهجهم في الحياة، لكي يفهم أبناؤنا قيمة أئمتهم، ويدركون مدى الخدمات والتضحيات التي قدمها الأئمة للمجتمع الإنساني عامة، ولأجيال الأمة الإسلامية خاصة.

وهذا الكتاب هو الحلقة الأولى من سلسلة كتب موجزة مبسطة تقدمها مكتبة الرسول الأعظم ﷺ العامة ـ مطرح، سلطنة عمان ـ مساهمة منها في توعية الناشئة، وملء الفراغ الفكري لدى الشباب.

وتسليطاً للضوء على حياة قادة الأمة، وأئمة الهدى صلوات الله وسلامه عليهم.

وكلنا أمل: أن تستطيع هذه السلسلة استقطاب أنظار الشباب الطامحين للوعي والمعرفة، وأن تنال إعجابهم، وتحوز رضاهم.

والله تعـالى نسـأل أن يوفقنـا لتحقيـق أهـدافنا، وأداء رسالتنا، فهو على كل شيء قدير.

حسن موسى الصفار

مسقط ـ ١٣٩٧/٣/٢٠هـ



دور الأئمة في الحياة

هل صحيح أن الأئمة مـا هـم إلا مجموعة من العباد الزهاد، الذين لم يكـن لهـم هـمٌّ إلا الصـلاة، ولا شـغل إلا التسـبيح، ولا عمـل إلا الدعاء؟؟.

وإذا لم يكن لهم دور فمـا هـو مبرر وجودهم كأئمة؟ ولماذا وجـدوا وعاشوا؟؟.

نستطيع أن نتعـرف علـى دور الأئمـة في الحيـاة، ومهمـتهم في التاريخ ضمن المواضيع التالية:

الأئمة.. تجسيد القيم

هناك قيم إنسانية سامية، يتعشقها كل الناس، ويتغنى بها كل مجتمع، ويطمح إليها كل فرد.. إنها قيم الخير والسعادة والكمال، كالعدالة.. والحق.. والإخلاص.. والتضحية.. وخدمة الآخرين.

هذه القيم لسموها، ولصعوبة الالتزام بها، فإنها نادرة الوجود في الواقع العملي، حتى لتبدو للإنسان: وكأنها نظريات مثالية، أو أفكار خيالية، ومن أحلام اليقظة.. وان تجسيدها وتطبيقها شيء غير ممكن، ما دام الإنسان هو الإنسان بشهواته وأهوائه ورغباته.

ومثل هذا التصور (مثالية القيم)، يرتاح إليه الإنسان، لأنه يشكل تبريراً لاعتدائه على هذه القيم، وخروجه عن حدودها، فهو لا يرى نفسه حينئذٍ مسؤولاً عن الالتزام بها، ولا يحاسب نفسه على احترامها، ما دام يعتقد أنها مجرد نظريات مثالية، غير قابلة للتطبيق والالتزام.

وواضح كم هو خطير هذا التصور على سعادة المجتمع الإنساني، ولكن كيف ندرأ عنه هذا الخطر؟

لا يمكننا إلا إذا أثبتنا للإنسان خطأ هذا التصور، وأقنعناه بواقعية تلك القيم، وإمكانية تجسيدها. وهذا لا يتم إلا بوجود مجموعة من الناس، يتحملون مسؤولية الالتزام بهذه القيم، وتجسيدها في الواقع الحياتي، في الوقت الذي يكونون فيه كسائر أفراد البشر، من حيث امتلاك الغرائز والرغبات.

ووجود هذه الفئة التي تطبق القيم حرفياً، وتتحمل كل الصعوبات في سبيل ذلك، يشكل دافعاً قوياً، لسائر الأفراد، للالتزام بالقيم، والإقتداء بتلك الفئة، وتقمص أدوارها ومواقفها.

ومن ناحية أخرى: فإن الله تعالى سيطالب الإنسان ويحاسبه يوم القيامة، على مدى تمسكه والتزامه بتلك القيم، فإذا كان الإنسان يعتقد مثالية تلك القيم، واستحالة تطبيقها، فستكون له الحجة على الله، وسوف لا يكون من حق الله تعالى أن يحاسبه على الالتزام بشيء لا يرى نفسه قادراً على الالتزام به.

إذاً، فلا بد وان يقيّض الله تعالى في هذه الحياة أفراداً من البشر، يقومون بدور التطبيق والتجسيد لهذه القيم.

ولهذا، أوجد الله الأنبياء والأئمة، وهذا هو دورهم

الرئيس في الحياة، يقول الله تعالى: {رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}[1].

ولذا نسمي الإمام حجة الله، ونطلق على الأئمة حجج الله على خلقه.. والحديث التالي يوضح لنا هذه الحقيقة:

عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: تؤتى بالمرأة الحسناء يوم القيامة، التي قد افتتنت في حسنها، فتقول: يا رب حسّنت خلقي حتى لقيت ما لقيت. (لاحظ كيف تعتبر الانحراف شيئاً طبيعياً، لأنه لا يمكنها الالتزام مع وجود دواعي الإغراء)، فيجاء بمريم عليها السلام فيقال: أنت أحسن أو هذه؟ قد حسّناها فلم تفتتن.

ويجاء بالرجل الحسن الذي قد افتتن في حسنه، فيقول: يا رب حسنت خلقي، حتى لقيت من النساء ما لقيت.

فيجاء بيوسف عليه السلام ويقال: أنت أحسن أو هذا؟ قد حسناه ولم يفتتن.

ويجاء بصاحب البلاء الذي قد أصابته الفتنة في بلائه. فيقول: يا رب شددّت علي البلاء حتى افتتنت. فيؤتى بأيوب فيقال: أبليتك أشد أو بلية هذا؟ فقد ابتلى فلم يفتتن[2].

---

(١) سورة النساء: ١٦٥.

(٢) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ٣٤١/١٢، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة الثانية المصححة، ١٤٠٣هـ.

فدور الأئمة مثل دور الأنبياء في الحياة، هو تجسيد قيم الخير والصلاح، وتحويلها إلى سلوك عملي، بالرغم من كل الصعوبات، حتى يقتدي بهم سائر الناس. يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[1].

وفعلاً، لقد قام الأئمة بهذا الدور خير قيام، فضربوا أروع الأمثلة ـ في التاريخ ـ في الالتزام بالقيم، وفي الصراع من أجل تطبيقها، وترجمتها إلى سلوك عملي، ومواقف حياتية، ولنلاحظ بعض النماذج:

١ـ قيمة الحق:

من الناحية النظرية، كل الناس يرون ضرورة التمسك بالحق، ويشجبون الانحراف عنه.. ولكن على الصعيد العملي، هل كل الناس مستعدون للالتزام بالحق حينما يتعارض مع مصالحهم وأغراضهم؟.

كثيراً ما يعرف الإنسان موقف الحق ولكنه يتجاهله، لأنه يتعارض مع مصالحه.. وهل هناك مصلحة أو غرض أكبر من كرسي حكم، وعرش سلطة، تمتد سيطرته من أقصى جبال اليمن، إلى آخر حدود إيران، ومن نيل مصر إلى نهاية شواطئ البحر المتوسط؟؟.

---

(١) سورة الأحزاب: ٢١.

إنها لمصلحة كبيرة، وسلطة مغرية، أن يصبح الإنسان إمبراطور هذه المنطقة الشاسعة من المعمورة، في مقابل ارتكاب مخالفة بسيطة لمنهج الحق.

إننا نقرأ عن حكام التاريخ، ونشاهد حكام اليوم، كيف ينسفون كل القيم، ويدرسون كل المبادئ، ويضربون بها عرض الجدار، إذا اعترضت طريق سيطرتهم، أو هددت عروشهم بالخطر. ولكن الإمام علي بن أبي طالب، عرضت عليه الخلافة بسعة نفوذها، وعظيم امتيازاتها، شرط أن يعطي التزاماً مخالفاً للحق، ويمكنه بعد ذلك أن ينقضه، ولكنه أبى ورفض الخلافة..

وذلك بعد مقتل الخليفة عمر بن الخطاب، الذي وضع مجلس شورى لاختيار خليفة للأمة من بعده، وكان المجلس يتشكل من ستة أفراد، أحدهم الإمام علي عليه السلام ،ولما اجتمعوا قال عبد الرحمن ابن عوف ـ رئيس المجلس ـ: نبايعك يا علي على كتاب الله وسنة رسوله وسيرة الشيخين. فقال الإمام: تبايعوني على كتاب الله وسنة رسوله واجتهاد رأيي، فأبوا عليه فرفض الخلافة وبايعوا عثمان بن عفان ـ وقد ذكرت كتب التاريخ هذه الحادثة، وبهذا المضمون، ومنها تاريخ الطبري[1] وغيره.

---

(١)الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير (ت/٣١٠هـ)، تاريخ الطبري ٢٩٧/٣، دار الفكر، طبعة ١٤١٠هـ.

٢. قيمة الصمود والتضحية:

إنها لقيمة عظيمة، أن يبقى الإنسان صامداً على موقف الحق، غير مبال بما يكلفه من ثمن.. وأن يرفض المساومة على مبادئه، بأي إغراء.. وأن يكون مستعداً للتضحية بماله، وأولاده، وأصحابه، وأطفاله، وعياله، وحياته في سبيل الله.. ولكن من هو الذي يستطيع تجسيد هذه القيمة، وتمثيل هذا الدور، حتى تقتدي به أجيال الأمة؟

إنه الحسين بن علي.

فقد منع القوم عنه الماء.

وقتلوا جميع أصحابه وأنصاره.

وذبحوا حتى طفله الرضيع.

وهاهم مصممون على قتله وسبي عياله.. أو يتنازل عن موقف الرفض والثورة، ويخضع لحكم يزيد، فيعيش حينئذٍ حياة الراحة والامتيازات.

ولكن الحسين رفض أن يتنازل، وان يساوم على مبادئه، وصمم على النضال والتضحية، بكل ما يملك قائلاً: لا والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أفر فرار العبيد، إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب[1].

---

(١) المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، ١٩١/٤٤، الطبعة الثانية المصححة، مؤسسة الوفاء، ١٩٨٣م، بيروت.

٣ـ قيمة الإخلاص:

كم هو رائع جداً أن يكون الإنسان مخلصاً لبني وطنه، مهتماً بخدمة ضعفاء أمته ومحتاجيهم، دون أن يبحث عن سمعة أو جاه، أو حتى كلمة شكر ممن يقوم بخدمتهم؟.

وكم هو صعب ترويض النفس على هذه القيمة الإنسانية الرائعة؟.

اقرأ حياة الإمام زين العابدين عليه السلام، لترى كيف أنه كان يخرج في جوف الليل، حينما يشتد حلك الظلام، ويغط الناس في نوم عميق، ويلف الكون سكون مطبق، يخرج الإمام وعلى ظهره جراب الطعام، أو قربة الماء، أو رزم الحطب، ويقصد بيوت الفقراء والعاجزين، فيطرق أبوابهم بهدوء، فإذا خرج إليه أحد من أهل البيت المحتاجين، ناوله حاجته، وهو متثلم حتى لا يعرف، وانصرف مسرعاً إلى البيت الآخر.. ويحاول الفقير أن يتعرف على هذا المحسن الكريم، حتى يشكره ويذكره بالخير، فيسأله من أنت جزاك الله خيراً؟ فيقول الإمام: عبد من عباد الله، أدعو الله له بالمغفرة والرحمة.

وكان للإمام زين العابدين ابن عم يؤذيه، فكان الإمام يجيئه ويعطيه الدنانير ليلاً، وهو مستتر فيقول: لكن علي بن الحسين لا يصلني لا جزاه الله خيراً. والإمام يسمعه ويصبر،

ولا يكشف له عن نفسه.

وحينما مات الإمام زين العابدين، وانقطعت معونته ومساعدته للفقراء والمحتاجين، عرف الناس انه هو الذي كان يقوم بهذا الدور[1]..

والآن ومن خلال هذه النماذج البسيطة، هل عرفنا خطورة دور هؤلاء الأئمة وعظمة مهمتهم؟ إنهم طليعة الإنسانية في تطبيق القيم السامية، والمبادئ الرائعة.. إنهم القدوة لأجيال البشرية الصاعدة.. إنهم حجج الله على الخلق.

(١) المفيد: محمد بن محمد بن النعمان، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد: ٢/ ١٤٩، تحقيق مؤسسة آل البيت لتحقيق التراث، بيروت ـ لبنان.

الأئمة.. القيادة الشرعية

أهم شيء تحتاجه الأمة هو وجود قيادة حكيمة، وحكومة عادلة، توفر للناس أجواء العدالة والأمن والحرية، وتسير بالشعب في طريق التقدم والازدهار.

فإذا ابتليت أمة بقيادة منحرفة، وحكومة ظالمة، فإن حياتها ستتحول إلى جحيم من البؤس والخوف والظلم، ومصيرها المؤكد هو التخلف والانهيار.

ويزداد الأمر أهمية وخطورة في المنعطفات التاريخية، والظروف الحرجة، التي تمر بها الأمة، فإذا ما توفرت لها قيادة واعية حكيمة، استطاعت أن تجتاز بالأمة ذلك المنعطف، وتتجاوز بها تلك الظروف، بكل خير وسلام، وإلا فسيكون مستقبل الأمة مهدداً بالتدهور والانحطاط.

ولا شك أن أهم منعطف تاريخي عاشته الأمة الإسلامية، هو وفاة الرسول محمد ﷺ، في أوائل السنة الحادية عشر للهجرة، لأن غياب الرسول محمد، صاحب

الرسالة، ومربي الأمة، أحدث فراغاً كبيراً في حياة الأمة.. ولأن أعداء الدولة الإسلامية الناشئة، كانوا ينتظرون الفرصة للانقضاض عليها، وللقضاء على طموحها الرسالي، الذي يهدد عروشهم.. ومن ناحية أخرى فإن الأمة الإسلامية لم تستكمل نضجها، ولم تنل حظها الكامل بعد من التربية الرسالية، وذلك بسبب ضيق الوقت، وظروف الصراع، وصعوبة العمل التغييري.

لمثل هذا المنعطف الخطير ماذا أعد الإسلام من ضمانات؟ وماذا قدّم الرسول من حلول، تأخذ بيد الأمة إلى شاطئ الأمن والتقدم والانتصار؟.

هل يجوز للإسلام وهو المبدأ الشامل، أن يتجاهل هذا الموقف، ويتركه على شراع الحظ والنصيب؟!.

وهل يعقل أن الرسول الأعظم ﷺ كان غافلاً عن حدوث هذا الواقع؟ أو كان غير مهتم بمستقبل الرسالة؟!.

إن من يقرأ التاريخ الإسلامي، يستكشف بسرعة أن أحداثه كانت تجري بشكل ارتجالي، دون أن يكون للرسالة أي دور في صنع تلك الأحداث والمواقف.

فقبل أن يدفن الرسول ﷺ اجتمع الأنصار أهل المدينة، ليفكروا في مستقبل الدولة الإسلامية، أو لمستقبلهم في الدولة، وتذاكروا دورهم الكبير في نصرة الإسلام وحماية

الرسول، فتطاولت أعناقهم لمنصب الخلافة الإسلامية، ولكنهم لم يكونوا قبيلة واحدة، ولا حزباً واحداً، بل قبيلتان بينهما تاريخ طويل من التنافس والصراع والحرب، لم ينهه إلا الإسلام. وهنا ثارت الأحقاد السابقة، وظهرت رواسب الصراع والتنافس، بين رئيسي القبيلتين: سعد بن عبادة سيد الخزرج، وأسيد بن حضير سيد الأوس.

ودار النقاش عنيفاً بين القبيلتين، وما قطعه إلا دخول بعض الصحابة من المهاجرين، هم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح.. ساعتها تحول الخلاف والصراع من خزرجي أوسي، إلى أنصار ومهاجرين، فقد تحدث الصحابة المهاجرون عن أحقيتهم بالخلافة دون الأنصار، وبعد أخذ ورد عنيفين حسم أبو بكر الموقف، بتقديم عمر بن الخطاب، وأبي عبيدة بن الجراح، قائلاً: لقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، فأيهما شئتم فبايعوا. وفوراً قال عمر وأبو عبيدة: لا والله لا نتولى الأمر عليك، أبسط يدك نبايعك! فبايعاه. ولكي تضعف الأوس جانب منافسهم الخزرج، سارعت إلى بيعة أبي بكر.. وهكذا حسم موضوع الخلافة الإسلامية في ذلك الوقت الخطير[1].

---

(١) الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير (ت/٣١٠هـ)، تاريخ الطبري ٤٤٤/٢، دار الفكر ـ بيروت، ط/١ ١٤١٥هـ.

وحينما حضرت أبا بكر الوفاة، استدعى عمر بن الخطاب ورشحه للخلافة من بعده، وطلب من الأمة الخضوع له[1].

وعندما أصيب الخليفة عمر، جمع ستة من الصحابة، هم: علي ابن أبي طالب، عثمان بن عفان، طلحة، الزبير، سعد بن أبي وقاص، عبد الرحمن بن عوف، وأمرهم أن يجتمعوا بعد وفاته، ويتفقوا على خلافة أحدهم، على أن يكون الرأي الأخير لعبد الرحمن بن عوف.

واجتمعوا.. وبعد كلام ونقاش التفت عبد الرحمن إلى الإمام علي قائلاً: أبايعك على كتاب الله وسنة رسوله وسيرة الشيخين. قال الإمام: بل على كتاب الله وسنة رسوله واجتهاد رأيي. فلم يقبل عبد الرحمن، والتفت إلى صهره عثمان، وقال له ما قال لعلي: أبايعك على كتاب الله وسنة رسوله وسيرة الشيخين، قال عثمان: نعم. فأصبح هو الخليفة.

وقتل الخليفة عثمان بعد ثورة عارمة.. وجاء الناس إلى علي بن أبي طالب يتمنون عليه قبول الخلافة، وبعد إصرار وإلحاح، وافق على طلبهم، وتولى الخلافة.. ولكن السيدة عائشة ومعاوية رفضا خلافته، وكذلك طلحة والزبير نكثا بيعته، ومن جراء ذلك دارت ثلاثة حروب طاحنة، ذهب

---

(١) المصدر نفسه: ٦١٨/٢.

ضحيتها عشرات الألوف من المسلمين.

وأصيب الإمام علي عليه السلام، فبايع الناس ابنه الإمام الحسن، إلا أن معاوية قاد جيشاً عظيماً، اضطر الإمام الحسن في مقابله إلى مصالحة معاوية، والتنازل له عن الحكم.

وأصبح معاوية هو خليفة المسلمين، وفي السنوات الأخيرة من حياته، فرض ابنه يزيد خليفة على الأمة من بعده، وتحولت الخلافة الإسلامية إلى ملك وراثي ينحصر في قبيلة بني أمية.

إلى أن ثار عليهم بنو العباس، فاستلموا الحكم وأصبح حكراً عليهم، يتوارثونه ويحبون به أبناءهم..

وهكذا كان التاريخ الإسلامي.

وهكذا جرت أحداثه المؤلمة!!.

فهل يوجد مسلم واع يرضى عن كل ما حدث ويرتاح لمسيرة التاريخ؟.

وإذا كان ما حدث شيئاً مؤسفاً مؤلماً فما هو البديل الذي كان يجب أن يحدث؟ وما هو العلاج الذي قدمه الدين لتلافي وقوع هذه المشاكل، التي أذهبت بقوة الأمة، وأودت بهيبتها، وأوقعتها في هاوية التخلف والانحطاط التي تعيشها الآن؟.

صحيح أننا لا نستطيع الآن تغيير ما حدث، فما جرى قد مضى، ولا يمكن التصرف فيه، ولكننا نجد أنفسنا أمام

أحد أمرين:

إما أن نعتقد أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان، وأن الإسلام لم تكن له خطة لحماية مستقبل الأمة، وأن الرسول ﷺ ما كان يفكر فيما يجري بعد وفاته، أو لم يدر في خلده أن شيئاً مما حدث سيحدث[1]، وبهذا نكون قد اعترفنا على ديننا بالعجز وعلى نبينا بقصر النظر والعياذ بالله!.

وإما أن نعتقد بأن هناك بديلاً قدمه الإسلام، وأن الرسول الأعظم ﷺ قد فكر في مستقبل أمته ورسالته، ووضع الضمانات الكافية لحماية الرسالة، ولسلامة الأمة، ولكن الذي حدث كان نتيجة لنوع من التأول أو سوء الفهم لأوامر الرسول، وبالتالي كان خطأ ساعدت الظروف على وقوعه، وبذلك نضع أيدينا على جذور مشكلة الأمة، ومنطقة الضعف في تاريخها، وهو الخطأ في معرفة أو تطبيق

---

(١) هنالك أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ تتنبأ بما سيحدث للأمة بعد وفاته ﷺ مثلاً: أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع أولها أخرها. ابن حنبل: أحمد بن حنبل، مسند أحمد بن حنبل ٤٨٩/٣، دار صادر ـ بيروت.

وقال ﷺ: «لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه..» .البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل. ط/ دار الفكر ـ بيروت.

تعاليم الدين في حقل القيادة والحكم.

والآن ما هو البديل الذي أعده الإسلام؟ وما هو الحل الذي قدمه الرسول لمشكلة الخلافة والحكم؟.

نحن نعتقد أن الرسول محمد ﷺ عمل منذ بدء دعوته، وبتخطيط سماوي، على تربية وإعداد الشخص الثاني المؤهل لقيادة الأمة، ولسد الفراغ بعد غياب الرسول، وهذا الشخص هو الإمام علي بن أبي طالب، ابن عم رسول الله، وزوج ابنته فاطمة، فقد احتضنه الرسول من حداثة سنه، ورباه في حجره، وصاغ نفسيته حسب أهدافه، وهذب أخلاقه وفق مبادئه، يحدثنا عن هذه العناية الخاصة الإمام علي نفسه فيقول:

«وقد علمتم موضعي من رسول الله ﷺ بالقرابة القريبة، والمنزلة الخصيصة، وضعني في حجره وأنا ولد، يضمني إلى صدره، ويكنفني في فراشه، ويمسني جسده، ويشمني عرفه، وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه، وما وجد لي كذبة في قول، ولا خطلة في فعل، ولقد قرن الله به ﷺ من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم، ليله ونهاره، ولقد كنت أتبعه إتباع الفصيل اثر أمه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً، ويأمرني بالإقتداء به، ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء، فأراه

ولا يراه غيري، ولم يجمع بيت واحد يومئـذ في الإسـلام غـير رسـول الله ﷺ وخديجـة وأنـا ثالثهمـا، أرى نـور الـوحي والرسالة، وأشم ريح النبوة.

ولقد سمعت رنة الشيطان حين نزل الوحي عليه ﷺ، فقلت يا رسول الله ما هذه الرنة؟ فقال: «هـذا الشـيطان قـد أيس من عبادته، انك تسمع ما أسمع، وترى ما أرى، إلا أنك لست بنبي ولكنك لوزير وانك لعلي خير»[1].

وروى النسائي عن الإمام علي أنه يقـول: «كانـت لـي منزلة من رسول اله لم تكن لأحد من الخلائـق، فكنـت آتيـه كل سحر فـأقول: السـلام عليـك يـا نـبي الله، فـإن تنحـنح انصرفت إلى أهلي، وإلا دخلت عليـه»[2]. ووري أيضـاً عـن الإمام قوله: كان لي من النبي ﷺ مـدخلان مـدخل بالليـل ومدخل بالنهار[3].

ومرة أخرى يقول الإمام علـي عليه السلام علمـني رسـول الله

---

(١) نهج البلاغة: ج١٥٧/٢، ابـن أبـي الحديـد، شـرح نهـج البلاغـة؛ تحقيق محمد أبو الفضل إبـراهيم، ج١٩٧/١٣، دار إحيـاء الكتـب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الأولى ١٣٧٨هـ.

(٢) النسائي: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب، السنن الكـبرى ٣٦٠/١ ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

(٣) المصدر نفسه، ١٤١/٥.

ﷺ ألف باب كل باب يفتح ألف باب[1].

وبهذا الإعداد الرسالي، والتربية الإلهية، أصبح الإمام علي مؤهلاً لقيادة الأمة، ولمواصلة تربيتها تربية إسلامية رائدة، وقد نص عليه الرسول ورشحه للخلافة في أكثر من مشهد، ابتداء بقصة الإنذار حين قال له أنت أخي ووصيي وخليفتي من بعدي[2]. وانتهاء بواقعة غدير خم المشهورة حينما خطب رسول الله في المسلمين الذين حجوا معه حجة الوداع قائلاً: «ألست أولى بكم من أنفسكم؟ قالوا: بلى. قال وهو آخذ بيد علي: من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله وأدر الحق معه حيثما دار»[3].

وكذلك اهتم الإمام علي بتربية ولديه الحسنين، ليؤهلهما لقيادة الأمة من بعده. وعمل الحسين على تربية

---

(١) المتقي الهندي: علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين، كنز العمال حديث رقم ٣٦٣٧٢، ج١٣ ص١١٤، تحقيق الشيخ بكري حياني، الشيخ صفوة السقا. مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ لبنان.

(٢) الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الطبري ٦٣/٢، ط.دار الفكر ـ بيروت، ط١/ ١٤١٥هـ.

(٣) ورد بصيغ مختلفة، راجع مثلاً: ابن حنبل، أحمد بن حنبل، مسند احمد بن حنبل ٢٨١/٤، دار صادر ـ بيروت، والألباني، ناصر الدين الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة، حديث رقم ٢٩٨٢.

ولده زين العابدين. واهتم زين العابدين بإعداد ولده الإمام الباقر، وهكذا إلى الإمام الحجة الثاني عشر.

وهذا لا يعني أننا نؤمن بطريقة الحكم الوراثي، فالوراثة ليست المؤهل الحقيقي للإمامة، وإلا فلماذا انتقلت الإمامة من الحسين إلى ولده مع وجود أخيه محمد بن الحنفية؟ ولماذا انتقلت الإمامة للإمام موسى الكاظم ولم تكن لأخيه الأكبر عبد الله أو إسماعيل؟.

وإنما الإمامة تعيين من الله، مع إعداد الإمام وتربيته تربية موجهة. وقد شاء الله تعالى أن تكون قيادة الأمة منحدرة من أشرف بيوتاتها، وهو بيت الرسول محمد ﷺ، وشاء أن يكون الإمام متولداً من إمام سابق، يقوم بتربيته وإعداده على خير وجه.

وهنا لا بد أن نؤكد بان الدور الطبيعي للأئمة، هو قيادة الأمة قيادة حكيمة واعية، تشق بالأمة طريق السعادة والتقدم، وتدفع عنها المشاكل والأزمات، ولكن مع مزيد الأسف لم تتح الفرصة لهؤلاء الأئمة حتى يقوموا بدورهم، ويؤدوا رسالتهم في قيادة الأمة.

ولو واتتهم الظروف، وخضعت لهم الأمة، وتمكنوا من الوصول إلى عرش الخلافة والحكم، لكان للأمة تاريخ غير هذا التاريخ، ولكان واقعها غير هذا الواقع.

الأئمة ومسؤولية الرسالة

الرسالة الإسلامية الخالدة، التي أعدها الله كنظام شامل للبشرية، إلى نهاية الحياة.

هذه الرسالة الشاملة، التي تؤطر حياة الإنسان، وتنظم كل حركاته، وتقرر له مواقفه الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية.. ألا تحتاج إلى مرجع يتحمل مسؤولية نشرها، ويبين أحكامها ويشرح آراءها، ويدفع عنها الأعداء من الخارج، ويحميها من التحريف والتزييف؟.

لقد كان النبي ﷺ يقوم بهذا الدور في حياته، فهو المسؤول عن بث الرسالة، والمرجع في إيضاح مقاصدها ومعالمها، والمعني بحمايتها، والدفاع عنها.

ولكن بعد النبي ﷺ من يشغل هذا الفراغ ومن يتحمل أعباء هذه المسؤولية؟.

فالإسلام أخذ يغزو المجتمعات المختلفة في مبادئها وعاداتها وتقاليدها، وهذا مما يهدد بتسرب شيء من

أفكارهم وعاداتهم للمجتمع الإسلامي.

وأعداء الإسلام سوف لا يتوانون عن إثارة الشبهات والشكوك في وجه الدعوة الجديدة.

ولا يخلو المجتمع الإسلامي من الداخل من محاولات التشويه والتحريف، الذي وقعت فيه كل الرسالات السابقة.

وفوق ذلك كله ستصادف المسلمين الكثير من الحوادث والقضايا المستجدة، والتي لم ينص القرآن ولا تحدث عنها الرسول ﷺ بشكل صريح، فكيف يتصرفون إزاءها أو يعرفون رأي الإسلام فيها؟.

قد يتبادر إلى الذهن أن الصحابة وعلماء الأمة جديرون بتحمل هذه المسؤولية، بعد أن عاشوا مع رسول الله ﷺ، وسمعوا حديثه، ووعوا مبادئه.

ولكن لو أخذنا في حسابنا المسافة الزمنية القصيرة، التي عاشها الصحابة مع الرسول، والتي لم تتجاوز عقداً واحداً من الزمن، (عشر سنوات) هي تلك الفترة التي تشكل فيها المجتمع الإسلامي في المدينة، وفيها نزلت أكثر التشريعات والأنظمة الإسلامية.

ولاحظنا مدى المشاكل والأحداث التي كانت تعصف بذلك المجتمع الناشئ، فتستهلك جل اهتمامه ووقته، لعلمنا حينئذٍ أن الوقت والظروف لم تسمح للصحابة باستيعاب

الرسالة استيعاباً شاملاً، ولم تمكنهم من التعرف على كل معالمها وأحكامها.. هذا بغض النظر عما سيحدث في المستقبل من قضايا جديدة.

وتستطيع أن تلمس هذه الحقيقة بمطالعة سريعة لاختلاف الصحابة في تطبيق الأحكام الشرعية، وحتى العبادية منها، بعد وفاة الرسول ﷺ مباشرة فمثلاً: «روى الطحاوي عن إبراهيم قال: قبض رسول الله ﷺ والناس مختلفون في التكبير على الجنازة لا تشاء أن تسمع رجلاً يقول سمعت رسول الله ﷺ يكبر سبعاً، وآخر يقول سمعت رسول الله ﷺ يكبر خمساً، وآخر يقول سمعت رسول الله يكبر أربعاً، فاختلفوا في ذلك حتى قبض أبو بكر»[1].

وسيرة الصحابة وتصرفهم تجاه ما يحدث من مشاكل، دليل على ثبوت هذه الحقيقة فقد «كانت سنة الخليفتين أبي بكر وعمر انه إذا نزلت النازلة لا يظهر لهما فيها شيء من سنة رسول الله ﷺ أن يجمعا لذلك العالمين، فإن وجدت عندهم سنة أخذ بها، وإن لم توجد اجتهدوا، فإذا اجتهدوا واتفقوا كان ذلك إجماعاً يجب على الكافة أن يأخذوا به، وإن

(١) الطحاوي: أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة، شرح معاني الآثار ٤٩٥/١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ.

اجتهدوا ولم يتفقوا وأمر والي الأمر باتباع رأي وجبت طاعته، وإن لم يكن إجماع ولا أمر، عمل كل بما أدّى إليه اجتهاده. وكانت سنة الخليفتين في هذا هي السنة التي يتبعها أمير كل مصر من الأمصار إن لم يرفع الأمر إلى الخليفة»[1].

وقد تتصوران ما عمله الصحابة من اللجوء إلى الاجتهاد هو الحل السليم الصحيح.. ولكن كيف يمكن لنا أن نتأكد أو نطمئن أن رأي هذا الصحابي أو اجتهاد ذاك هو طبق ما أراد الله، ومصيب لأمر الشريعة ١٠٠٪؟.

إذ أن احتمال الخطأ شيء طبيعي في الاجتهاد، وإن كان خطأ يعذر به المجتهد عند الله تعالى، ولكنه بالتالي لم يوصلنا إلى الحكم الحقيقي الذي شرعه الله لنا.

وثانياً: حينما لا يعين الدين مرجعاً واحداً، وإماماً مطاعاً، ترجع إليه الأمة، وتطمئن إلى رأيه، ألا يعني ذلك تعدد الآراء واختلاف الاجتهادات؟ فعلى رأي من تعتمد الأمة؟ ومن يضمن حينئذٍ أن لا يتحول هذا الاختلاف في الرأي إلى خلاف وصراع يمزق وحدة الأمة، ويفرق صفوفها، كما حدث بالفعل؟ حيث تعددت المذاهب، وتضاربت الآراء، إلى حد أن بعضها صار يكفر البعض الآخر، ويحكم بفسقه وخروجه عن الدين!.

---

(١) موسوعة جمال عبد الناصر في الفقه الإسلامي ج١ ص٢٥.

لقد اتضح لنا إذاً أن الحل السليم، والعلاج الصائب، الذي يضمن لنا الحصول على الرأي الحقيقي للدين، ويوفر لنا الوحدة والاجتماع، هو وجود إمام يتحمل هذه المسؤولية بكفاءة وجدارة، فتخضع له الأمة، فيقوم بدور التوعية والتثقيف، ويبين رأي الدين فيما يستجد من قضايا ومشاكل، ويصون الرسالة من الأعداء والمحرفين.

وهذا هو بالضبط دور الأئمة الطاهرين، الذي نعتقد أن الله تعالى أعدهم للقيام به، ورشحهم الرسول ﷺ لتحمل مسؤوليته، فقد قال الرسول الأعظم ﷺ باتفاق رواة المسلمين وعلمائهم: «إني تارك فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»[1]وفي رواية أخرى: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما»[2].

---

(١) ابن حنبل، أحمد بن حنبل، مسند احمد بن حنبل، ج٣ ص١٤، دار صادر ـ بيروت.

(٢) الترمذي: محمد بن عيسى بن سورة، سنن الترمذي، ٣٢٩/٥ تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، دار الفكر ـ بيروت ١٤٠٣هـ. سلسلة الأحاديث الصحيحة ٣٥٥/٤ـ٣٥٨.

وحيث أن الظروف لم تسمح لأئمة أهل البيت بممارسة دورهم الطبيعي في قيادة الأمة وتوجيهها، وبث الرسالة وحمايتها، فقد كانوا عليهم السلام يغتنمون الفرص، ويستثمرون مختلف المجالات للقيام بمهمتهم ومسؤوليتهم في شرح معالم الإسلام، وتوضيح مبادئه، وسأنقل عينات ونماذج مختصرة، تحكي عن تحمل الأئمة لهذه المسؤولية وقيامهم بهذا الدور:

قضية شرعية:

فتاة عفيفة، أنهت فترة العزوبة من حياتها، بكل أمانة والتزام، حيث تزوجها أحد المسلمين.. وشاء لها القدر أن تلد بعد مرور ستة أشهر وأيام على زواجها.. ومن المألوف عند الناس أن مدة الحمل لا تقل عن تسعة أشهر.. لذلك أصبحت تلك الفتاة الشريفة مادة دسمة للدعاية والاتهام، وصارت لقمة سائغة على ألسن الناس، الذين يتتبعون أخطاء الآخرين وعثراتهم.. مما اضطر زوجها أن يرفع الأمر للخليفة عمر بن الخطاب. ولكن الخليفة هو الآخر كان يعتقد كعامة الناس: أن أقل مدة للحمل هي تسعة أشهر! فلم يتوان من الحكم عليها بحد الزني!.

وفاجؤها بحكم الخليفة عليها بالحد، فتمزقت نفسها ألماً وعذاباً: فهي متأكدة من عفة نفسها، وحفظ شرفها. وهنا عاشت تناقضاً نفسياً، وصراعاً داخلياً حاداً: كيف يقدر الله لي

الولادة بعد ستة أشهر ثم يحكم عليّ بالعقاب؟ وما ذنبي أنا؟.

كيف يمكن أن يناقض حكم الله الشرعي قدره التكويني؟.

أصحيح أن هذا حكم الله أم أن الخليفة مخطئ؟.

وإذاً فمن يحمي أعراض الناس وكرامتهم من أمثال هذه الأخطاء؟.

وشاء الله تعالى أن ينقذ تلك الفتاة البريئة، ويثبت لها عدالة شريعته وانسجامها مع قوانين الطبيعة، وشاء الله أن يكشف الحقيقة ويظهر الحق، فإذا بالإمام علي بن أبي طالب عليه السلام يمر، فيرى الناس متجمعين، ينتظرون إقامة الحد على تلك الفتاة العفيفة، فيسأل عن الخبر، فأعلموه بأنها فتاة لم يمض على زواجها أكثر من ستة أشهر وقد ولدت الآن.

فقاطعهم الإمام: وماذا في ذلك؟.

قالوا: إنه يدل على أنها زانية قبل الزواج بثلاثة أشهر، فلذا حكم عليها الخليفة بالحد.

فتألم الإمام وحمد الله على وصوله قبل تنفيذ الحكم بالفتاة المظلومة وقال: انتظروني حتى آتيكم.

وجاء مسرعاً للخليفة عمر وسأله عن مستنده في الحكم عليها بالحد. فقال عمر: لأن الحمل لا يكون لستة أشهر.

فأجابه الإمام: بأن القرآن يقرر أن أقل مدة للحمل هي ستة أشهر.

عمر: وأين ذلك في القرآن؟.

فشرح له الإمام: إنـه تعـالى يقـول: ﴿وَوَصَّيْنَا الإنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْرًا﴾[1] فقرر إن مدة الحمـل والرضـاع ثلاثـون شـهر. سنتان وستة أشهر وفي آية أخرى يحـدد الله للرضـاع أو الفصـال سنتين كاملتين: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾[2] ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾[3] فإذا أنقصنا مدة الرضـاع والفصـال من مجموع مدة الحمل والفصال (٣٠ـ٢٤=٦) فالمتبقي ستة أشهر مدة الحمل باعتراف القرآن.

فوافـق الخليفـة علـى رأي الإمـام وقـال حينئـذٍ قولتـه المشهورة لولا علي لهلك عمر. وأطلق الفتاة[4].

---

(١) سورة الأحقاق ١٥.

(٢) سورة لقمان ١٤.

(٣) سورة البقرة ٢٣٣.

(٤) المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار: ١١١/٣٠، مؤسسة الوفاء بـيروت ـ لبنان الطبعة الثانية المصححة ١٤٠٣هـ،

القندوزي: سليمان إبـراهيم الحنفـي، ينـابيع المـودة لـذوي القربـى، تحقيق سيد علي جمال أشرف الحسني، ١٧٣/٢، دار أسوة ـ الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.

البيهقي: أحمد بن الحسين، السنن الكبرى ج٧ ص٤٤٢، باب مـا جـاء في أقل الحمل.

أرأيت كيف حل الإمام هذه المشكلة الاجتماعية والـتي يمكن أن يتكرر حدوثها؟ وكيف استطاع أن يبين رأي الـدين في هذه القضية؟ في مثل هـذه المواقـف يتضـح دور الأئمـة، وهنا يبرز هذا الجانب من قيمتهم الحقيقية عليهم السلام.

لا للسكوت على الظلم:

في وقت مبكر ابتليت الأمة الإسلامية بسلطات طاغية، تسـللت إلى منصـة الخلافـة والحكـم، بـالقوة والإرهـاب، كالسلطات الأموية والعباسية، ولم تلتزم بدين الله، ولم تحكـم شريعته في الحياة، فصادرت حقوق الشعب وسـلبت كرامتـه وحريته.

وتحت ضغط الإرهاب والقوة، وبدافع الجبن والخنـوع، انتشـرت في صـفوف الأمـة حالـة السـكوت والمهادنـة، والاستسلام للواقع الفاسد.

والأمر من ذلك: أن أصحاب هـذا الموقـف الانهزامـي أضفوا عليه صبغة دينية، واختلقوا له تبريراً شرعياً، فطرحوا مفاهيم وفتاوى تأمر بالخنوع والمهادنة، وتدعو إلى السـكوت والاستسلام، وتنهى عن الرفض والثورة، وعززوهـا بـبعض الأحاديث والنقولات، وهي إما غير صحيحة السند، أو أنـه كان يساء تفسيرها، وتحديد موارد انطباقها.

وغير خفي خطر هـذه النظـرة علـى الإسـلام، وعلـى

مصالح الأمة ومستقبلها، فهي تكرس واقع الفساد، وتحافظ على استمرار الظلم والانحراف.

وهنا قام أئمة أهل البيت بدورهم الرسالي، وتصدوا لمحاربة هذه النظرة الاستسلامية وتزييفها، وتوضيح رأي الإسلام الثوري، الذي يرفض الظلم، ويستنكر السكوت عليه، ويعتبره اشتراكاً عملياً في الجريمة.. ولقد جسد موقف الإسلام هذا الإمام الحسين ابن علي عليه السلام، الذي أعلن الثورة على الظلم والطغيان، وكشف عن رأي الدين الحقيقي تجاه الفساد قائلاً: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: من رأى سلطاناً جائراً، مستحلاً لحرام الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغير عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله أن يدخله مدخله[1].

وهذا هو الدور الآخر للأئمة في الحياة، وهو أكثر خطورة وأهمية.. وهو دور تغيير الأوضاع السياسية والاجتماعية، التي تهدد مستقبل الأمة والرسالة، بخطر التدهور والانحراف.. وقد تحمل الأئمة مسؤولية التغيير الثوري، بكل ما يملكون حتى بدمائهم وأرواحهم.

---

(١) الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير (ت/٣١٠هـ)، تاريخ الطبري، ٣٠٤/٤، دار الفكر ـ بيروت، ط/١ ١٤١٥هـ.

المبادئ هي المقياس:

لقد عمل الإسلام على تربية الأمة الإسلامية تربية مبدئية واعية، وكان من أهم المقاييس التي اهتم الإسلام بتعميقها في ضمير الأمة: أن تكون المبادئ هي الميزان والمقياس، لأي حركة أو تصرف أو تقييم، وأما الأشخاص فلا قيمة لهم إلا بمقدار التزامهم بتلك المبادئ.. وأي شخص ينحرف أو يخالف شيئاً من المبادئ الإسلامية يحكم عليه بالخطأ، كائناً من كان وبالغاً من بلغ..

وسارت الأمة تطبق هذا المقياس، وتمارس هذا المبدأ العظيم، حتى مع الخلفاء والحكام: فحينما أراد الخليفة عمر أن يفرض على الناس حكماً خاطئاً، لم تتهيب امرأة مسلمة عادية أن تقوم في وجهه، معترضة عليه، محتجة بالقرآن، مما دفع الخليفة إلى الاعتراف بالخطأ، والرجوع عن رأيه، أخرج عبد الرزاق قال: قال عمر: لا تغالوا في مهور النساء، فقالت امرأة: ليس ذلك لك يا عمر، إن الله يقول وأتيتم إحداهن قنطارا... فقال عمر امرأة خاصمت عمر فخصمته[1].

---

(١) ابن حجر: شهاب الدين أحمد بن علي، فتح الباري شرح صحيح البخاري ١٦٧/٩، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الرابعة. المجلسي، بحار الأنوار: ج٣٨٢/٤٤، المتقي الهندي: علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين، كنز العمال، ٥٣٨/١٦، تحقيق الشيخ بكري حياني، الشيخ صفوة السقا. مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ لبنان.

وأبو ذر الغفاري على فقره وبساطته، حينما لاحظ الانحراف والتلاعب باقتصاد الأمة، في عهد الخليفة عثمان، لم يسمح له ضميره بالمجاملة والسكوت بل ثار معلناً رفضه لما يحدث ومطالباً بإصلاح الأوضاع[1].

ووجود هذه الروح في الأمة، هي الضمانة لسلامة مبادئها، واستقامة مسيرتها..

ولكن بعد فترة قصيرة من اتساع رقعة الإسلام، حاولت بعض الجهات المغرضة أن تلغي دور هذا المبدأ الإسلامي العظيم، لتعطي للأشخاص قيمة ذاتية، وتفسح لهم مجال التلاعب والتحرك المصلحي، دون التقيد بالمبادئ والقيم، فالأشخاص حينئذ فوق المبادئ، وعملهم وتصرفهم هو المقياس.

ومن هذه المحاولات إضفاء صفة القداسة والإكبار على جميع الصحابة، الذين عاشوا مع الرسول ﷺ، وتبرير كل تصرفاتهم، وتصويب مواقفهم وآرائهم مهما كانت خاطئة في حساب المبادئ، واختلقوا أحاديث مزيفة نسبوها إلى رسول الله ﷺ كقولهم: «إنما أصحابي مثل النجوم، فأيهم أخذتم بقوله اهتديتم» ، قال محمد ناصر الدين الألباني حول هذا الحديث: إنه موضوع، ونقل عن ابن حزم قوله (٦ /٨٣): «فقد ظهر أن هذه الرواية لا تثبت أصلاً،

---

(١) الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير (ت/٣١٠هـ)، تاريخ الطبري، ٣٥٣/٣ وما بعدها، دار الفكر ـ بيروت، ط١/ ١٤١٥هـ..

بل لا شك أنها مكذوبة، لأن الله تعالى يقـول في صـفة نبيـه ﷺ: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى(٣)إِنْ هُـوَ إِلاَّ وَحْـيٌ يُـوحَى﴾، فـإذا كـان كلامه ﷺ في الشريعة حقاً كله وواجباً، فهـو مـن الله تعـالى بـلا شك، وما كان من الله تعالى فلا يختلف فيه، لقولـه تعـالى: ﴿وَلَـوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا﴾.

وقـد نهـى تعـالى عـن التفـرق والاخـتلاف بقولـه: ﴿وَلاَ تَنَازَعُوا﴾، فمن المحال أن يـأمر رسـوله ﷺ باتبـاع كـل قائـل مـن الصحابة رضي الله عنهم، وفيهم من يحلـل الشـيء، وغـيره يحرمـه، ولو كان ذلك لكان بيع الخمر حلالاً، اقتـداء بسـمرة بـن جنـدب، ولكان أكل البرد للصائم حلالاً، اقتداء بأبي طلحة، وحراماً اقتـداء بغيره منهم، ولكان ترك الغسل مـن الإكسـال واجبـاً اقتـداء بعلـي وعثمان وطلحة وأبي أيوب وأبي بن كعب، وحراماً اقتـداء بعائشـة وابن عمر، وكل هذا مروي عندنا بالأسانيد الصحيحة».

ثـم أطـال في بيـان بعـض الآراء الـتي صـدرت مـن الصحابة، وأخطؤوا فيها السنة، وذلك في حياته ﷺ، وبعد مماته، ثـم قـال (٦/ ٦٤): «فكيـف يجـوز تقليـد قـوم يخطئـون ويصيبون؟!».[1]

وإذا صح هذا الحديث فإنه ينطبق على الصحابة الملتـزمين

---

(١)الألباني: محمد ناصر الدين، سلسلة الأحاديث الضعيفة، ١/١٤٩ـ ١٥١، ح٦١، ط١ ١٩٩٣م، مكتبة المعارف، الرياض.

بمبادئ النبي، حيث تأتي قيمتهم من التزامهم هذا. أما الذين انزلقوا في مهاوي الانحراف وسقطوا في مستنقعات المصالح، فلا يمكن أن يجري عليهم هذا الحديث، ليصبحوا قدوات للأجيال المؤمنة لمجرد أنهم عاشوا أياماً مع الرسول ﷺ.

ولقد قام الأئمة عليهم السلام، بكشف خطأ هذا الاتجاه ومخالفته لمبادئ الإسلام. فهذا الإمام علي عليه السلام يقول: إن الحق لا يعرف بالرجال، اعرف الحق تعرف أهله[1].

وحينما أصبح بعض الصحابة عقبة في طريق إصلاحات الإمام علي بعد توليه الخلافة، لم ير أي مانع من مقاومتهم وتصفيتهم، إذا أصروا على تمردهم وخروجهم على سلطته الشرعية، بالرغم من أنهم كانوا من خيار صحابة الرسول سابقاً.

وهكذا تعرفنا على مهمة الأئمة الخطيرة في الحياة ودورهم الكبير في الأمة، من خلال النقاط السابقة والتي هي:

١ـ تجسيد القيم.

٢ـ القيادة الشرعية.

٣ـ تحمل مسؤولية الرسالة.

---

(١) الطوسي: أبو جعفر محمد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن ١/١٩٠، تحقيق أحمد حبيب قصير العاملي، مكتب الإعلام الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.



مواصفات الأئمة

الإمامة هذا المنصب الخطير، والمسؤولية الضخمة، التي تتوقف عليها حياة الأمة، ومصير الرسالة، هل يمكن أن يتحمل أعباءها أي فرد عادي؟.

أم أن لها مؤهلات وكفاءات ومواصفات، يجب أن تتوافر في الشخص المرشح للإمامة، حتى يستطيع تحمل المسؤولية، وقيادة الأمة إلى شاطئ الحق والسعادة؟.

طبعاً، لا بد وأن تكون للإمام مؤهلات وكفاءات عالية، ولابد أن يمتلك مواصفات معينة، تجعله جديراً بتقمص هذا المنصب، وتحمل تلك المسؤولية.

وسنعرض الآن أهم هذه المواصفات، من خلال رؤية الإسلام، وواقع حياة الأئمة الطاهرين، الذي يسجله لهم التاريخ في صفحاته المشرقة.

العصمة.. ضرورة قيادية

وتعني العصمة: الالتزام الكامل والحرفي بالدين، وإصابة الحق دائماً..

وبهذا، فالعصمة ضرورة قيادية، لأن المسؤول عن تبيين معالم الدين، ونشر أحكام الشريعة وحفظها وتطبيقها، لا بد وأن يكون هو أولاً ملتزم بها، وإلا فكيف يثق الناس بقيادة من يكتشفون انحرافه عما يدعوهم إلى تطبيقه؟!.

وثانياً: المفروض في الإمام أن يصبح قدوة للآخرين، وأقواله وتصرفاته ومواقفه حجة على الناس، يكتشفون عبرها آراء الإسلام ومواقفه، وحينئذ فإن خطأ الإمام وانحرافه سيقود الأمة جميعاً إلى هاوية الخطأ والانحراف.

وثالثاً: إذا جازت المعصية والانحراف على أي فرد من أفراد الأمة، فلأن انحرافه سيكون في نطاق ضيق، وتحت طائلة القانون.

أما إذا كان قائد الأمة، وإمام الدين، يمكنه الانحراف،

فإن انحرافه سيكون فظيعاً وخطيراً على الأمة جمعاء، وعلى الرسالة ككل!.

فمثلاً: إذا كان يصح للإمام أن يعصي، فمن يضمن ألا يساوم على حقوق الأمة؟.

ومن يضمن ألا يستولي عليه الطمع والأنانية، فيحكم بوحي من مصالحه الخاصة؟.

وأخيراً: من يضمن تطبيقه لأحكام الدين بالشكل الكامل والمضبوط؟!.

وإذا لم تكن آراؤه صائبة دائماً، فكيف تنقاد الأمة لأمره، ما دامت تحتمل فيه الخطأ؟ وحينئذ يصبح إماماً لفئة معينة، أو مسائل خاصة، وليس للأمة ككل، وفي الدين بأجمعه.

وباعتبار الإمام قائداً للأمة، فإن قراراته وأعماله إذا لم تصب الحق، فإنها ستكون وبالاً على الأمة، فإذا كان الإمام كأي عالم آخر يجتهد فيخطئ، فإن ثمن خطئه سيكون باهظاً موجعاً.. فمثلاً، حينما اجتهد طلحة والزبير (كما يزعم البعض) فأخطأ ماذا كانت النتيجة؟ إنها سقوط ٤٠ ألف أو ٢٥ ألف قتيل وقطع ١٤ ألف يد كما تتحدث روايات التاريخ!.

وحينما اجتهد الخليفة عثمان فأخطأ، وأفسح المجال

لأقربائه وعائلته الحاكمة، فتلاعبت بحقوق الأمة وكرامتها، فماذا كانت النتيجة؟ إنها الفوضى العامة، والفتنة المستمرة، وسلسلة طويلة من المآسي والحروب!.

ومعاوية حين أخطأ في اجتهاده، وفرض ابنه يزيد خليفة على الأمة، فماذا حدث؟ ضاعت قيم الإسلام وتدهور مستقبل الأمة!.

إن رسالة كالإسلام تطمح لسيادة العالم، وأمة كالمسلمين هي خير أمة أخرجت للناس، لا يمكن أن يكون مستقبلها ومصيرها على مهب رياح الاجتهاد، واحتمال الإصابة.. بل لا بد وأن تكون قيادتها قادرة ١٠٠٪ على إصابة الواقع، والوصول إلى الحق.. وخاصة في تلك الفترة الخطيرة، حيث لم يكتمل نضوج الأمة، ولم تتضح كل معالم الدين وأحكامه.

تلك هي فلسفة العصمة؛ فالإمام لابد وأن يكون معصوماً، لنطمئن إلى أقواله وقراراته.. ونمنحه الثقة الكاملة.. ولنضمن سلامة المستقبل وحسن المصير.

ويجب التنبيه على أن العصمة لا تعني اختلافاً تكوينياً فسيولوجياً بين الإمام وسائر الناس، حيث يكون الإمام بطبيعة تكوينه مجبوراً على الطاعة، وغير قادر على المعصية.

كلا، وإنما تعني العصمة بلوغ الإمام درجة عالية من الوعي الديني، والنضوج النفسي، تدفعه إلى الالتزام بالدين

التزاماً كاملاً، وعدم الانحراف عن مبادئه، وذلك نتيجة لاقتناعه الداخلي، أو اندفاعه الذاتي، بكل اختياره وحريته.

ولتقريب الفكرة نمثل مثالاً بسيطاً:

حينما تقع حشرة قذرة في أفضل عصير تعتزم شربه، هل تحتمل أن تميل نفسك إلى شربه مهما كان طيباً، بعد أن وقعت فيه الحشرة القذرة؟!.

طبعاً: لا.

هل يعني ذلك أنك لا تشتهي ذلك العصير مبدئياً؟.

كلا، ولكن: إذا وقع الذباب على طعام رفعت يدي ونفسي تشتهيه.

ثم هل يعني امتناعك وإعراضك عن ذلك العصير أنك عاجز وغير قادر على شربه وتناوله؟.

كلا، ولكنك باقتناع ذاتي، ودافع داخلي، لا تشرب لأنك تستقذره حينئذ وتشمئز منه.

وكذلك الإمام تلوح له المعصية، وتلمع أمامه الإغراءات، وهو بشر له شهوات البشر، وغرائز البشر، ولكن وعيه الديني، ونضوجه النفسي، يجعله ينفر بشكل طبيعي واختياري عن المعصية والإغراء، كما تنفر أنت بملء حريتك وإرادتك من شرب العصير الذي وقعت فيه الحشرة القذرة.

يقول الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام:

«ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل، ولباب هذا القمح، ونسائج هذا القز، ولكن هيهات أن يغلبني هواي، ويقودني جشعي إلى تخير الأطعمة ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا عهد له بالقرص ولا طمع له بالشبع»[1].

وقد حكم القرآن بعصمة أهل البيت في آية التطهير: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[2].

وقد جاء في صحيح مسلم ما نصه بالحرف: قالت عائشة خرج النبي ﷺ غداة وعليه مرط مرحل ـ برد من برود اليمن ـ من شعر أسود، فجاء الحسن بن علي فأدخله، ثم جاء الحسين فدخل معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء علي فأدخله، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[3] ومثله سنداً ودلالة ما رواه الترمذي في صحيحه[4] والإمام أحمد في

---

(١) محمد عبده، نهج البلاغة، ٣/٧١ـ٧٢، دار المعرفة ـ بيروت.

(٢) سورة الأحزاب: ٣٣.

(٣) مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم: ج٢/ص١١٦، ط١/ دار الفكر.

(٤) الترمذي: محمد بن عيسى بن سورة، سنن الترمذي، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف ٥/ ٣٠ـ٣١، دار الفكر ـ بيروت ١٤٠٣هـ. سنن الترمذي.

مسنده[1] وغيرهما من أئمة الحديث.

وفي تفسير الطبري عن أبي سعيد الخدري الصحابي الجليل وأم سلمة زوجة الرسول ﷺ قالت: «لما نزلت آية إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت، دعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً، ووضع عليهما كساءً، وقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي اللهم اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، قالت أم سلمة ألست منهم، قال: أنت إلى خير»[2] ومثله في تفسير ابن كثير[3] والدر المنثور للسيوطي[4] وغيرها من التفاسير.

وتسأل: إن سياق الآيات يدل على أن المراد بآية التطهير نساء النبي ﷺ فكيف أخرجهن عنها من نقلت عنهم من المفسرين والمحدثين؟.

والجواب أولاً: إن صاحب تفسير المنار نقل عن أستاذه الشيخ محمد عبده: «إن من عادة القرآن أن ينتقل بالإنسان

---

(١) ابن حنبل، أحمد بن حنبل، مسند احمد بن حنبل ج٦/ص٢٩٢، دار صادر ـ بيروت.

(٢) الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير (ت/٣١٠هـ)، تاريخ الطبري، ٩/٢٢، دار الفكر، طبعة ١٤١٠هـ.

(٣) المصدر نفسه، ج٣/ ٤٩٢.

(٤)المصدر نفسه، ج٥ /١٩٨.

من شأن إلى شأن آخر، ثم يعود إلى مباحث المقصد الواحد المرة بعد المرة»[1]. وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: أن الآية من القرآن يكون أولها في شيء، وآخرها في شيء آخر.. وعلى هذا فلا يصح الاعتماد على دلالة السياق لآي الذكر الحكيم كقاعدة كلية.

ثانياً: لو سلمنا ـ جدلاً ـ بصحة الاعتماد على دلالة السياق للآيات فإن قوله تعالى: ﴿لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ...... يُطَهِّرَكُمْ﴾ بضمير المذكر، دون ضمير المؤنث، هو نص صريح على إخراجهن من الآية. وليس من شك أن دلالة النص مقدمة على دلالة السياق لأنها أقوى وأظهر.

ثالثاً: إن المفسرين والمحدثين الذين ذكرناهم، قد اعتمدوا في إخراجهن على الحديث الصحيح عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد اتفقت كلمة المسلمين على أن السنة النبوية تفسير وبيان لكتاب الله[2].

رابعاً: إن أئمة أهل البيت جميعاً، كانوا يعلنون أنهم المعنيون بهذه الآية، ولم يعارضهم أحد في ادعائهم. بينما لم ينقل لنا التاريخ أن واحدة من زوجات النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ادعت لنفسها هذه المكانة.

---

(١) محمد رشيد رضا: تفسير المنار، ج٢ ص٤٥١، الطبعة الثانية.

(٢) محمد جواد مغنية: التفسير الكاشف، ج٦/ص٢١٧.

وبعكس ذلك اعترفت أم سلمة بأن رسول الله ﷺ صارحها بأنها ليست من أهل البيت كما سبق.

وهنالك أحاديث كثيرة يؤكد فيها الرسول محمد ﷺ عصمة أهل بيته، وضرورة التزامهم بالدين، وعدم إمكانية انحرافهم عن مبادئ القرآن.

كقوله ﷺ: «إني تارك فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض»[1].

وبدراسة حياة الأئمة الطاهرين عليهم السلام دراسة واعية، تتجلى أمامك العصمة المشرقة في مواقفهم وأقوالهم وممارساتهم.

فهذا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يكشف عن نفسيته المعصومة بقوله الرائع: «والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها، على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلته، وإن دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها، ما لعلي ولنعيم يفنى ولذة لا تبقى! نعوذ بالله من سبات العقل، وقبح الزلل. وبه نستعين»[2].

---

(١) الحاكم النيسابوري: محمد بن محمد، تحقيق الدكتور يوسف المرعشلي، ١٤٨/٣، دار المعرفة ـ بيروت، ١٤٠٦هـ.

(٢) محمد عبده، نهج البلاغة ٢١٨/٢، دار المعرفة ـ بيروت.

ويحدثنا الإمام علي مرة أخرى عن بعض مواقفه المعصومة فيقول: «والله لقد رأيت عقيلاً (وهو أخو الإمام) وقد أملق حتى استماحني من بركم صاعاً، ورأيت صبيانه شعث الشعور، غبر الألوان من فقرهم كأنما سودت وجوههم بالعظلم، وعادوني مؤكداً، وكرر علي القول مردداً فأصغيت إليه سمعي، فظن أني أبيعه ديني، واتبع قيادة مفارقاً طريقتي، فأحميت له حديدة، ثم أدنيتها من جسمه ليعتبر بها، فضج ضجيج ذي دنف من ألمها، وكاد أن يحترق من ميسمها، فقلت له: ثكلتك الثواكل يا عقيل! اتئن من الأذى ولا أئن من لظى»[1] ؟!.

بالله عليك هل يتمكن إنسان في مكانة الإمام علي كحاكم أعلى للدولة الإسلامية الشاسعة، أن يضغط على عاطفته إلى هذا الحد، فيرفض تمييز أخيه عن سائر المسلمين بثلاث كيلوات من الحنطة؟.

ولكنها العصمة التي يجب أن تتوفر في الإمام، ليسير بالأمة في طريق العدل وليسلك بها درب الحق والسعادة.

---

(١) المصدر نفسه ٢/٢١٧.

الكفاءة العلمية

إن أهم مسؤولية يتحمل الإمام أعباءها، هي مسؤولية نشر الرسالة، وتبيين معالم الدين، والعمل على تطبيقها وتنفيذها.

بالطبع، فإن الإمام لا يستطيع القيام بهذه المسؤولية بالشكل الكامل والصحيح، ما لم يكن خبيراً بأسرار الرسالة، محيطاً بمعالم الدين، عارفاً بكل الحقائق التي تتعلق بتطبيق أحكام الإسلام.

لذا يشترط في الإمام أن يكون عالماً بكل قضايا الشريعة، مدركاً لجميع الحقائق الكونية والطبيعية المرتبطة بها، وبذلك يصبح أعلم الأمة.

فالإمام إذا كان يجهل حكماً من أحكام الدين، فما الفائدة من وجوده إذاً؟ وكيف تتحصل الأمة على ذلك الحكم الذي يجهله حتى إمامها؟.

وإذا كان الإمام غير مطلع على الحقائق الطبيعية

المرتبطة بالأحكام الشرعية، فكيف يمكنه تطبيق الأحكام وتنفيذها عملياً؟!.

وإذا وجد في الأمة من هو أعلم من الإمام، كان هو الأجدر بالإتباع، والأحق بالإمامة والقيادة، يقول تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لاَ يَهِدِّي إِلاَّ أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[1].

هذا من الناحية العقلية، وأما من الناحية النقلية، فقد ثبت عن رسول الله ﷺ أكثر من حديث يؤكد الكفاءة العلمية لأهل البيت، وتفوقهم على جميع الأمة، كقوله ﷺ في وصيته للأمة بأهل البيت: «فلا تقدموهم فتهلكوا، ولا تقصروا عنهم فتهلكوا، ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم»[2].

وقوله ﷺ في حق علي بن أبي طالب عليه السلام: «أنا مدينة العلم وعلي بابها»[3].

---

(١) سورة يونس: ٣٥.

(٢) ابن حجر: شهاب الدين أحمد بن علي، الصواعق المحرقة باب وصية النبي بهم.

(٣) المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، ٢٦٢/٢٨، مؤسسة الوفاء بيروت ـ لبنان الطبعة الثانية المصححة ١٤٠٣هـ. وقد روى هذا الحديث وأورده ١٤٣ عالماً من علماء السنة ومحدثيهم ذكرهم مع المصادر العلامة المغفور له الشيخ الأميني قدس سره في الجزء السادس من كتاب الغدير ص٦١ـ٧٧.

وتاريخياً لا تكاد تقرأ سيرة إمام من الأئمة، إلا وتلاحظ خضوع علماء عصره له، واعترافهم بأعلميته، وتتلمذ كبارهم على يديه، فالإمام علي بن أبي طالب عليه السلام كان كل الصحابة يعترفون له بالتفوق العلمي، حتى قال حبر الأمة عبد الله بن عباس: ما علمي وعلم الصحابة في علم علي إلا كالقطرة في سبعة أبحر[1].

والخليفة عمر طالما كان يفزع للإمام علي في المشاكل الصعبة، فيرى لدى الإمام الحلول الناجعة، فكان يردد: لا أبقاني الله لمعضلة ليس فيها أبو الحسن.

وهذا عطاء المكي يقول في الإمام محمد الباقر عليه السلام: «ما رأيت العلماء عند أحد قط أصغر منهم عند أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين ولقد رأيت الحكم بن عتيبة مع جلالته في القوم بين يديه كأنه صبي بين يدي معلمه»[2].

---

(١) القندوزي: سليمان إبراهيم الحنفي، ينابيع المودة لذوي القربى، تحقيق سيد علي جمال أشرف الحسني: ١٥/١، دار أسوة ـ الطبعة الأولى ١٤١٦هـ، المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، ١٠٥/٨٩، مؤسسة الوفاء ـ بيروت، الطبعة الثانية المصححة ١٤٠٣هـ.

(٢) المفيد: محمد بن محمد بن النعمان، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، تحقيق مؤسسة آل البيت لتحقيق التراث، ١٦٠/٢، دار المفيد.

وفي الإمام الصادق عليه السلام يقول أبو حنيفة ـ إمام المذهب الحنفي ـ: ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد[1].

ويقول الإمام مالك بن أنس ـ إمام المذهب المالكي ـ: «جعفر بن محمد اختلفت إليه زماناً فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال إما مصل وإما صائم وإما يقرأ القرآن» وقال: ما رأت عين ولا سمعت أذن ولا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر بن محمد الصادق علماً وعبادة وورعاً[2].

وأبو الصلت الهروي يتحدث عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام فيقول: ما رأيت أعلم من علي بن موسى الرضا عليه السلام ،ولا رآه عالم إلا شهد له بمثل شهادتي، ولقد جمع المأمون في مجالس له ذوات عدد، علماء الأديان، وفقهاء الشريعة والمتكلمين، فغلبهم عن آخرهم، حتى ما بقي منهم أحد إلا أقر له بالفضل، وأقر على نفسه بالقصور[3].

---

(١) الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، سير أعلام النبلاء تحقيق شعيب الارنؤوط ـ حسين الأسد، ٢٥٧/٦، مؤسسة الرسالة ـ بيروت الطبعة التاسعة ١٤١٣هـ.

(٢) ابن حجر: شهاب الدين أحمد بن علي، تهذيب التهذيب، ٨٩/٢، دار الفكر ـ الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ.

(٣) المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، ١٠٠/٤٩، مؤسسة الوفاء بيروت ـ لبنان الطبعة الثانية المصححة ١٤٠٣هـ.

وعلى صعيد الواقع سأنقل لك بعض المواقف العلمية لأهل البيت، حيث تتجلى فيها كفاءة العلم، وغزارة المعرفة، وقوة الإدراك:

أ) قضية علمية:

كان الإمام علي يعمل في بستان له، يركل على مسحاة، وعليه قميص قد نصف أردانه، وهو يردد قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ يردد تلاوة الآية ويبكي، وهو مستمر في عمله.. وإذا بالخليفة عمر مع مجموعة من الصحابة قد دخلوا عليه.. فاستقبلهم الإمام باسماً مرحباً، وتساءل عن سبب مجيئهم المفاجئ؟ فقال له الخليفة: قضية عرضت لم يعرف الصحابة لها حلاً.

الإمام: خيراً إنشاء الله وما هي؟.

عمر: امرأتان ولدتا غلاماً وجارية، وكل واحدة منهما تدعي الغلام وتنتفي من الجارية، وكلتاهما لا تمتلك بينة ولا شهوداً.

الإمام: هذا بسيط هين. ثم استحضر المرأتين، وأحضر قدحاً ودفعه إلى إحديهما، لتحلب فيه شيئاً من حليبها، ثم وزنه، وبعد ذلك دفع القدح إلى المرأة الأخرى، فحلبت فيه من ثديها ووزنه، فرجح حليب إحداهما على الأخرى، فحكم بالولد لصاحبة الحليب الراجح وبالجارية للثانية..

فتعجب الصحابة من حكمه واندهشت المرأتان واللتان تعرفان الحقيقة[1].

وواضح أن الإمام اعتمد في حكمه على قضية علمية، وهي أن الله تعالى لما أراد لجسم الرجل أن يكون صلباً خشناً قوياً، وأراد لجسم المرأة أن يكون ناعماً ترفاً رقيقاً. فقد جعل حليب الأم التي تلد ولداً أثخن وأشد كثافة من حليب الأم التي تلد بنتاً.

ب) استنباط رائع:

في عصر الإمام الرضا عليه السلام أوصى رجل عند موته بأن يعتق كل مملوك له قديم. وأراد أهله تنفيذ وصيته بعد وفاته. فراجعوا العلماء والقضاة، لتحديد المدة التي يطلق بها على العبد أنه قديم، فاختلف العلماء في الرأي، فبعضهم قال: كل عبد مضى عليه سنة فهو قديم، وآخر قال: بل عشر سنوات، وحكم بعضهم بأكثر من ذلك، ولكن دونما دليل مقنع.

فسألوا الإمام الرضا عليه السلام فقال: ما ملكه لستة أشهر فهو قديم وهو حر.

فسأله العلماء عن حجته في ذلك فقال عليه السلام: لأن الله

---

(١) سفينة البحار: ج٢ ص٤٣٥.

تعالى يقول: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ أسماه الله قديماً ويعود كذلك ستة أشهر[1].

ومرة مرض المتوكل العباسي فنذر أن شفي ليتصدقن بمال كثير، وفعلاً قام من مرضه، فجمع العلماء ليحددوا له المبلغ الذي يتوجب عليه دفعه وفاءً للنذر، فتعددت آراؤهم فمن قائل يتصدق بألف درهم وآخر بأقل، وثالث بأكثر، فأشار عليه أحد أصحابه بأن يرجع إلى رأي الإمام علي الهادي عليه السلام، وكان آنذاك معتقلاً لدى المتوكل، فوجه إليه من يسأله. فقال عليه السلام يتصدق بثمانين درهماً.

فاستنكر العلماء ذلك، وطلبوا الدليل من الإمام، فأجاب عليه السلام بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ وقد عددنا هذه المواطن فبلغت ثمانين موطناً[2].

ج) سباق مع العلم الحديث:

ولمعرفة الأئمة بأسرار الحياة، فقد كان بإمكانهم أن يشيروا إلى كثير من حقائق الطبيعة والكون، لولا عجز المجتمع المعاصر لهم، عن استيعاب تلك الحقائق، ومع ذلك

---

(١) الطبرسي: أبو علي الفضل بن الحسن، مجمع البيان، ٣٢/٨، مؤسسة الاعلمي لمطبوعات بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

(٢) الطبرسي: أبو علي الفضل بن الحسن، مجمع البيان، ٣٢/٥، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

فقد تحدث الأئمة عن بعض الحقائق العلمية، التي لم تعرف قبل عصر الاختراع والاكتشاف.

فالإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في خروجه للنهروان رأى شلالاً تتساقط منه المياه فقال: «لو شئت لاستخرجت من هذا الشلال نوراً يستضيء به العالم»[1]. ومضت هذه الكلمة العلمية أدراج الرياح، ولكن حياة البحار والأنهار هي اليوم من مصادر الطاقة الكهربائية، والإمام قبل ألف وثلاثمائة سنة يشير إلى إمكانية استخراج الضوء من الماء.

ومرة كان الإمام علي عليه السلام مسافراً من الحجاز إلى العراق وأثناء الطريق افترش رمال صحراء الجزيرة، وصار يقلب الرمال بكفيه، ويقول وهو يخاطب أصحابه: «لو شئت لاستخرجت لكم من هذه الأرض النفط! قالوا: وما النفط؟ قال: شيء يشبه الزيت»[2].

ومعروف جداً أن أب الكيمياء الحديثة هو جابر بن حيان الكوفي، تلميذ الإمام الصادق، والذي يفتتح كل رسالة من رسائله الكيميائية الموجودة الآن في المكتبة الوطنية في لندن، يفتتحها بقوله: حدثني سيدي جعفر بن محمد

---

(١)الأسدي: قاسم، لا للحضارة المادية ١٨٩.

(٢) نشرة الهدى الكويتية عدد رمضان ١٩٧٦ نقلاً عن مجلة العرفان اللبنانية.

الصادق[1] ـ والإمام الصادق سبق غيره بذكر الدورة الدموية في جسم الإنسان، وأن للنبات روحاً وغيرها من الدقائق[2].

وقد أشار الإمام الرضا عليه السلام للجاذبية الأرضية فقد سئل عليه السلام عن قول الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾. فقال: محبوكة إلى الأرض وشبك بين أصابعه...)[3].

أما كيف توصل الأئمة إلى هذا المستوى الرفيع من المعرفة وكيف امتلكوا هذه الكفاءة العلمية الضخمة؟ فإن ذلك يتم بعوامل عدة:

١ـ تميزهم بنوع من الذكاء المتفوق وقوة الحافظة.

٢ـ التربية والتعليم، فكل إمام يتربى في أجواء أبيه العلمية، يأخذ منه علوم الرسالة ومعارف الحياة، حتى يصل

---

(١) ويستحسن مراجعة كتاب (الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب) وهو مجموعة بحوث أعدها علماء الاستشراق وألقوها في ندوة نظمتها جامعة ستراسبورغ الفرنسية، وهو يعرض بعض النظريات العلمية التي توصل إليها الإمام الصادق قبل أن يصل إليها العلم الحديث.

(٢) راجع كتاب توحيد المفضل.

(٣)الطبرسي: أبو علي الفضل بن الحسن، تفسير مجمع البيان، ٢٥٤/٩، تحقيق لجنة من العلماء والمحققين، ط١ ١٤١٥هـ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

التسلسل إلى الإمام علي الذي تربى على يد الرسول ﷺ.

٣ـ الإلهام من قبل الله تعالى، فبطريقة غيبية يقذف الله تعالى في روح الإمام وتفكيره ما يحتاجه من العلم والمعرفة.

والإلهام وسيلة سماوية يستخدمها الله تعالى ليس فقط في توجيه الأنبياء، بل وحتى الأولياء والصالحين، الذين ترتبط بهم مصالح الإرادة الإلهية. والقرآن الكريم يحدثنا عن الاتصال السماوي الغيبي مع أم موسى عليه السلام: { وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنْ الْمُرْسَلِينَ } [1].

وفي قصة مريم يعرض القرآن الحكيم اتصال السماء بالسيدة مريم: { فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا۞قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنتَ تَقِيًّا۞ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلاَمًا زَكِيًّا } [2].

ولأهمية الدور الذي يقوم به الإمام، ولضرورة معرفته بما تحتاجه الأمة، فإن الله تعالى يمده بكل ما تتطلبه مصلحة الدين من العلوم والمعارف.

---

(١) سورة القصص: ٧.

(٢) سورة مريم: ١٧ـ١٩.

وهذا ما يفسر لنا بعض الظواهر الغيبية في حياة الأئمة، كإخبارهم عن بعض القضايا الغيبية، وتنبؤهم بأحداث المستقبل، ونبوغهم العلمي في سن مبكر، كالإمام محمد الجواد الذي تحمل أعباء الإمامة في سن حدث، واستطاع أن يتفوق على أكابر علماء عصره.

التفوق الشامل

في الموضوع الأول تحدثنا عن ضرورة الأئمة لتجسيد القيم الإنسانية العالية.. حتى يكونوا قدوة للناس في اعتناق تلك القيم والالتزام بها.. وليصبحوا حجة على أفراد المجتمع البشري تحفزهم لتقمص الفضيلة والصلاح.

وهذا يعني أن يكون الأئمة في قمة الالتزام، وعلى أرفع درجات التحلي بالقيم السامية.. وبعبارة أخرى: أن يكونوا متفوقين على جميع الناس، في جميع حقول الفضيلة والقيم.

وإلا، فإن افتقاد الإمام لأي ملكة فاضلة، يعني وجود ثغرة في كيان الأمة الحضاري والقيادي، يمكن أن تنفذ منها رياح التخلف والانحراف.

فإذا كان الإمام مثلاً يمتلك كل صفات الكمال، عدا صفة الشجاعة والإقدام! فمعنى ذلك سيطرة روح الانهزامية والجبن على مواقف الأمة، وعلى تعاملها مع أعدائها، وبالتالي ستنعكس هذه الروح على جميع فئات الأمة، وفي

مختلف الجبهات.

وإذا كان الإمام يتحلى بجميع الفضائل، ولكنه يفتقد لصفة العدل، فإن ذلك يسبب اختلال ميزان التعامل بين القيادة والشعب. وبالتالي وجود نوع من الانفصال والهوة النفسية بين الإمام وجماهير الأمة، مما يهدد بالفوضى والاضطراب.

فتلافياً لهذه الثغرات الخطيرة، يجب أن يكون الإمام جامعاً لكل ملكات، ليس هذا فقط، وإنما يجب أن يكون متفوقاً في جميع المجالات، حتى يصبح قدوة لكل فئات الأمة، ومطمحاً لجميع أبنائها.

وفي موضوع العصمة، رأينا كيف أن الأئمة يتميزون بالتمسك الحرفي والكامل بتعاليم الدين، حيث لا يمكن أن يفرطوا في أبسط أمر، أو أدنى حكم شرعي.

كما تبين لنا في موضوع الكفاءة العلمية تفوق الأئمة في مجالات العلم والمعرفة.

وفي هذا الحديث، نريد أن نقرر تفوق الأئمة أيضاً في سائر الحقول والمجالات.. وحيث لا يتسع الموضوع للتحدث عن جميع الفضائل والقيم، وتفوق الأئمة فيها، فإننا سنقتصر على عرض بعض منها:

شجاعة وصمود:

الشجاعة والصمود ضرورة في جميع ميادين الحياة ومعاركها، وليس فقط في الميدان العسكري، إلا أن ساحة الحرب هي أبرز مظهر يمارس الإنسان فيه شجاعته وصموده.. والبطولة العسكرية لا تصدر إلا عن روح شجاعة، ونفس صامدة، فهي فرع الشجاعة المعنوية.

والأمة الإسلامية وهي تعيش التحدي الشامل مع جميع جبهات الجاهلية والظلم والانحراف.. لهي في أمس الحاجة إلى روح البطولة والشجاعة والصمود.

ولكن من أين تستمد الأمة هذه الروح ؟وكيف تحافظ على استمراريتها وحرارتها؟ هل إلاّ من قيادتها الحكيمة، التي تبث فيها روح الشجاعة، وترفع لديها درجة الثبات والصمود؟.

لذا كان من الضروري لقيادة الأمة، أن تمتلك روح الجرأة والشجاعة والإقدام.

والأئمة الطاهرون عليهم السلام باعتبارهم قادة الأمة. كانوا يحتلون أرفع مستويات الشجاعة والصمود. وقد كتبوا بأرواحهم الجريئة، ومواقفهم الصامدة، أروع صفحات البطولة في التاريخ.

١ـ ففي واقعة الخندق يوم تجمعت الأحزاب والقبائل، لتحاصر مدينة الإسلام، عمل المسلمون على تحصين المدينة بخندق عميق، حفروه حولها، ولكن أبطال قريش اكتشفوا مكاناً ضيقاً من الخندق! فعبروا منه بخيولهم المدربة، وكان يقدمهم عمرو بن عبد ود، فارس قريش وبطلها المقدام، واقتربوا من معسكر المسلمين، وصاح عمرو: من يبارز؟ فلم يتحرك أحد من المسلمين تهيباً من عمرو وسمعته البطولية. فقال رسول الله لأصحابه: من لهذا؟.

فلم يجبه أحد إلا علي أجاب: أنا له يا نبي الله. فقال الرسول: إنه عمرو، اجلس.

ومرة أخرى نادى عمرو بتحد ساخر: ألا رجل؟ وأردف قائلاً: أين جنتكم التي تزعمون أن من قتل منكم دخلها؟!.

وبحماس بطولي قام علي قائلاً: أنا له يا رسول الله. ومرة ثانية أمره الرسول بالجلوس، ليعطي للموقف أبعاده الكاملة.

وتمادى عمرو في تحديه فأنشد يقول:

ولقد بححت من النداء بجمعكم هل من مبارز؟
ووقفت إذ جبن المشجع موقف البطل المناجز
أني كذلك لم أزل متسرعاً نحو الهزاهز

إن الســـماحة والشـــجاعة في الفـــتى خـــير الغرائـــز

وهنا ارتفعت درجة التحدي عند الإمام، وبلغ الحماس مداه فقام مستأذناً من الرسول ﷺ والذي قال له: إنه عمرو!.

وبنفس ملؤها الثقة والإقدام، أجاب الإمام فوراً: وأنا علي ابن أبي طالب!.

وأذن له الرسول في النزول إلى ساحة المعركة، ومجابهة الطاغية عمرو، فاندفع الإمام سريعاً يعدو باتجاه عمرو، ويرد على تحديه منشداً:

لا تعجلـــن فقـــد أتـــاك مجيب صـوتك غـير عـاجز

ذو نيـــــة وبصـــــيرة والصدق منجـي كـل فـائز

إنـــي لأرجـــو أن أقـــيم عليـــك نائحـــة الجنـــائز

مـــن ضـــربة نجـــلاء يبقـــى ذكرهـــا عنـــد الهزاهـــز

بينما كان الرسول يشيعه بنظراته الواثقة الرحيمة، قائلاً: برز الإيمان كله إلى الشر كله.

واقترب الإمام من عمرو، فتعجب عمرو من إقدام علي وجرأته، فقال: من أنت؟.

ـعلي بن أبي طالب.

عمرو: أجل لقد كان أبوك نديماً لي وصديقاً، فارجع

فإني لا أحب قتلك!.

علي: لكني أحب أن أقتلك!.

عمرو: يا ابن أخي.. إني لأكره أن أقتل الرجل الكريم مثلك، فارجع وراءك خير لك، ما آمن ابن عمك حين بعثك إليّ أن أختطفك برمحي هـذا، فأتركـك شـايلاً بـين السـماء والأرض لا حي ولا ميت.

علي: قد علم ابن عمي أنك إن قتلـتني دخلـت الجنـة وأنت في النار، وإن قتلتك فأنت في النار وأنا في الجنة.

عمرو: كلتاهما لك يا علي؟ تلك إذن قسمة ضيزى.

علي: إن قريشاً تتحدث عنك أنك قلـت: لا يـدعوني أحد إلى ثلاث إلا أجيب إلى واحدة منها؟.

عمرو: أجل.

علي: إني أدعوك إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

عمرو: دع هذه!.

علي: فإني أدعوك إلى أن ترجع بمـن يتبعـك إلى مكـة، فإن يك محمد صادقاً فـأنتم أعلـى بـه عينـاً، وإن يـك كاذبـاً كفتكم ذؤبان العرب أمره.

عمـرو: إذن تتحـدث نسـاء قـريش عـني: إن غلامـاً

خدعني، وينشد الشعراء في أشعارها أني جبنت ورجعت على عقبي من الحرب أو خذلت قوماً رأسوني عليهم.

علي: فإني أدعوك إلى البراز راجلاً.

عمرو مندهشاً: ما كنت أظن أن أحداً من العرب يرومها مني.

وترجل عمرو وبادر علياً بالسيف على رأسه، فلم تصبه الضربة، وعندئذ قام الإمام بحركة عسكرية بارعة، وضرب عمرو بالسيف على عاتقه، وأردفها بضربة على رجليه، فسقط عمرو على الأرض صريعاً. وانهزم المشركون وانتهت الواقعة بانتصار المسلمين.

وفي كل معارك الإسلام وغزوات المسلمين كانت مواقف علي البطولية هي التي تصنع النصر، وتحسم المعركة لصالح الإسلام.

صمود الحسين:

وتساقط كل أصحابه على أرض التضحية والفداء، وقتل جميع أولاده حتى الطفل الرضيع بسيوف البغي والطغيان.. وبقي وحده في ساحة المعركة، يجابه ذلك الجيش الضخم، المدجج بالسلاح والعدة.. ولكنه كان ثابت الجنان، صامد الروح.. وصار يخوض المعركة ويردد شعار البطولة والصمود:

أنـــــا الحســـين بــن علــي
آلـــيـــــت ألا أنـــثـنـــــي
أحـمـــــي عـيـــالات أبـــــي
أمضــي علـــى ديـــن الـــنبي

يقول حميد بن مسلم شاهد المعركة:

«والله ما رأيت مكثوراً قط، قد قتـل ولـده وأهـل بيتـه وأصحابه، اربط جأشـاً ولا أمضـى جنانـاً، ولا أجـراً مقـدماً منه، والله ما رأيت قبله ولا بعده مثلـه، وإن كانـت الرجالـة لتشـد عليـه، فيشـد عليهـا بسـيفه، فتنكشـف عـن يمينـه و عن شماله، انكشاف المعزى إذ شد فيـه الـذئب، ولقـد كـان يحمل فيهم فينهزمون من بين يديه كأنهم الجـراد المنتشـر ثـم يرجع إلى مركزه وهو يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله».

نضال الأئمة:

واستمر الأئمة من ولد الحسين عليه السلام يقـودون مسـيرة الــرفض والمعارضــة ضــد الســلطات الظالمــة، والأوضــاع الفاســدة.. إلا أن الظـروف فرضـت علـيهم أسـلوباً معينـاً للعمل، بنشر الثقافة الإسلامية الصحيحة، وتوعيـة جماهير الأمة بمسؤوليتها، وتربية الكـوادر والشخصـيات الرسـالية، التي تتصدى للدفاع عن مبادئ الدين وحقوق الأمة.

ولذلك تجد عصر الأئمة مليئاً بالثورات الشعبية التي يتزعمها أولاد الأئمة وتلامذتهم وأتباعهم:

ففي عهد زين العابدين عليه السلام ظهرت حركة التوابين، وتفجّرت ثورة المختار الثقفي.

وفي عهد الإمام الباقر عليه السلام ثار أخوه زيد بن علي بن الحسين. وبعد مقتله ثار ولده يحيى بن زيد.

وفي عهد الإمام الصادق عليه السلام حدثت ثورة عبد الله بن معاوية بن عبد الملك بن جعفر بن أبي طالب، وبعده تفجرت ثورة محمد بن عبد الله ذي النفس الزكية، من أحفاد الإمام الحسن ابن علي بن أبي طالب. وفي الوقت نفسه ثار أخوه إبراهيم بن عبد الله..

وفي عصر الإمام الكاظم عليه السلام حدثت ثورة الحسين بن علي شهيد فخ. وثورة يحيى وإدريس بن عبد الله.

وفي عصر الإمام الرضا عليه السلام تفجرت ثورة محمد بن إبراهيم، وأبي السرايا، ثم ثورة محمد الديباج بن جعفر الصادق، ثم ثورة علي بن محمد بن جعفر الصادق، كما ثار إبراهيم بن الإمام الكاظم.

وفي عصر الإمام الجواد ظهرت ثورة عبد الرحمن بن أحمد، من أبناء عم الإمام الجواد، وثورة محمد بن القاسم من أحفاد الإمام علي عليه السلام أيضاً.

وهكذا كان عصر الأئمة مليئاً بالثورات المضادة للظلم والجور والفساد.

والتاريخ وإن كان لا ينقل لنا كل التفاصيل عن مدى علاقة الأئمة بهذه الثورات، وارتباطهم بزعمائها الثائرين، ولكنه يحدثنا بإيجاز خاطف، عن مدح الأئمة وثنائهم على أكثر زعماء الثورات، وتألم الأئمة لمصارعهم، بل ومشاركة الأئمة اقتصادياً، أو بتحفيز أبنائهم للانخراط في صفوف الثورة.

وفي مطاردة السلطات واضطهادها للائمة بالسجن والقتل أكبر، دليل على خطورة وجودهم على السلطات، وإلا فما الذي يضر السلطة من إمام عابد زاهد؟.

بالإضافة إلى أن الثائرين كلهم أو جلهم كانوا من أسرة الأئمة، أو تلاميذهم وأتباعهم.

أخلاق رائعة:

في حقل العمل الاجتماعي، والإصلاح العام، تحتل الأخلاق أعلى درجة من الأهمية.. فهي التي تعين المصلح أو القائد على استقطاب الناس وكسب قلوبهم، وبالتالي يجعلهم متجاوبين مع دعوته وأفكاره.. وهي التي تضعف موقف أعدائه، وتضطرهم لإعادة النظر في مواقفهم تجاهه.

والأئمة الطاهرون وهم قادة الأمة، والمسؤولون عن

توجيهها وإصلاحها، لابد وأن يتسنموا ذروة الأخلاق، حتى يتمكنوا من أداء مهمتهم، وإنجاح رسالتهم.

وإن الإنسان ليندهش جداً، حينما يقرأ عن سلوك الأئمة الاجتماعي، وأخلاقهم في التعامل مع الناس، بمختلف طبقاتهم ومستوياتهم، من العطف على الضعفاء والمحرومين ومواساتهم، واحترام الطرف الآخر مهما كان حجمه الاجتماعي ومكانته المادية، والإغضاء عن إساءة الجاهل والمغرض.

وسننقل بعض المشاهد الأخلاقية للأئمة:

١ـ الإمام علي بن أبي طالب يوم كان يحكم الدولة الإسلامية الكبيرة، زاره ذات مرة رجل مع ابنه، فاستضافهما الإمام، ودعا بالمائدة، وأحضر الأكل، وأكل الإمام مع ضيفيه، وبعد الانتهاء، جاء خادم الإمام بطست وإبريق ومنديل لغسل الأيدي، وإذا بالإمام يبادر إلى أخذ الإبريق وتقديم الطست للرجل الضيف، يريد أن يصب الماء على يديه.

واندهش الرجل: كيف أقبل أن يصب على يدي الماء إمام الأمة ورئيس الدولة؟.

ورفض الرجل بشدة قائلاً: يا أمير المؤمنين.. الله يراني وأنت تصب الماء على يدي.

ولكن الإمام ألح عليه قائلاً: اجلس واغسل فإن الله عز

وجل يراك وأخوك (يعني نفسه) الذي لا يتميز عليك (...) ولا ينفصل عنك يخدمك، يريد بذلك في خدمته في الجنة مثل أضعاف أهل الدنيا من الخدم.

وجلس الضيف يغسل يديه، والإمام يصب عليه الماء، بكل تواضع واحترام. ولما فرغ من ذلك، دفع الإمام الإبريق الطست إلى ولده محمد بن الحنفية ليتولى صب الماء على يد الضيف الابن، وقال لمحمد:

يا بني لو كان هذا الابن حضرني دون أبيه، لصببت على يده، ولكن الله عز وجل يأبى أن يسوي بين الابن وأبيه إذا جمعهما مكان.. ولكن قد صب الأب على يد الأب، فليصب الابن على يد الابن[1].

٢ـ في صباح العيد تقدمت جارية، كانت ملكاً للحسين عليه السلام تقدمت للإمام الحسين بباقة ورد، كهدية رمزية منها للإمام بمناسبة العيد.

فتقبلها الحسين شاكراً، وقال لها ببسمة واحترام: أنت حرة لوجه الله.

استغرب الأصحاب الحاضرون وقالوا: يا أبا عبد الله أهدت إليك باقة ورد لا تساوي شيئاً فأعتقتها؟.

---

(١)المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، ٥٦/٤١، مؤسسة الوفاء، الطبعة الثانية المصححة، بيروت ١٩٨٣م.

قال عليه السلام: هكذا أدبنا الله قال الله: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾. ولم أر تحية أرد بها على تحية هذه الجارية أحسن من عتقها فأعتقتها لوجه الله[1].

٣ـ الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، وكان ولي عهد المأمون العباسي، حاكم الدولة الإسلامية المترامية الأطراف آنذاك، كانت تقدم إليه المائدة فيجمع كل خدمه وعبيده ويأكل معهم جميعاً على مائدة واحدة.

وفي أحد الأيام، كان في ضيافته أحد الشخصيات الرسمية للدولة، فلم يعجبه هذا المنظر، فقال للإمام: جعلت فداك لو عزلت لهؤلاء مائدة. فقال عليه السلام: مه، إن الرب تبارك وتعالى واحد، والأم واحدة، والأب واحد، والجزاء بالأعمال[2].

٤ـ أصدر المتوكل العباسي أمراً عسكرياً لأحد الضباط، واسمه سعيد الحاجب، بأن يكبس دار الإمام علي الهادي، ويفتشها، ويأتي بكل ما فيها، ويعتقل الإمام، وأن يتم كل ذلك ليلاً.

وجاء الضابط يحمل سلماً صعد عليه من خلف الدار، وتسلق دار الإمام، ونزل على السطح، إلا أن الظلام لم

---

(١)المصدر نفسه، ١٩٥/٤٤.

(٢) المصدر نفسه: ١٠١/٤٩.

يسمح له بالرؤية، مما جعله متحيراً، وإذا بالإمام يناديه: مكانك يا سعيد حتى آتيك بالشمعة.

يقول الضابط: «وجاء الإمام لي بشمعة فأخذتها وصرت أفتش البيت» [1].

عبادة في القمة:

العبادة ليس مجرد حركات تقليدية، من قيام وقعود، يؤديها الإنسان حسب العادة.

ولا هي كلمات غامضة معقدة، يرددها الإنسان دون فهم ومعرفة.

وليست العبادة فترة انعزال وترهبن، يهرب فيها الإنسان من قضايا الحياة، ومشاكل الواقع، إلى عالم التصوف والخيال.

العبادة وقفة تأمل، وتربية للنفس والروح، يتزود الإنسان خلالها بطاقات الطهر والمحبة والإخلاص، وتكنس من نفسه رواسب الحقد والأنانية والانحراف.

العبادة خشوع روحي ينعكس على الجسد، فيعرف الإنسان به قيمته في هذا الكون العظيم، ومسؤوليته أمام الله تعالى خالق الكون والمهيمن عليه.

---

(١)المصدر نفسه، ١٩٩/٥٠.

والعبادة بعد ذلك استلهام لمعاني السمو، وقيم الحق، وتنمية للضمير والوجدان.

هكذا كان الأئمة الطاهرون عليهم السلام يفهمون العبادة، ومن هذا المنطلق كانوا يمارسونها باهتمام منقطع النظير.. حتى لقد ضربوا أروع الأمثلة والخشوع والوعي العبادي.. ولنعش الآن بعض السطور مع بعض النماذج العبادية للأئمة:

١ـ يحدثنا أبو الدرداء عن مشهد عبادي رائع، شهده بنفسه للإمام علي عليه السلام، فيقول: شهدت علي ابن أبي طالب بشويحطات (أشجار) النجار، وقد اعتزل مواليه، واختفى ممن يليه، واستتر بمغيلات النخل، فافتقدته وبعد عليّ مكانه، فقلت: لحق بمنزله، فإذا أنا بصوت حزين، ونغمة شجي، وهو يقول: «إلهي كم من موبقة حلمت عن مقابلتها بنقمتك؟.

وكم من جريرة تكرمت عن كشفها بكرمك؟.

إلهي إن طال في عصيانك عمري، وعظم في الصحف ذنبي فما أنا مؤمل غير غفرانك، ولا أنا براج غير رضوانك».

فشغلني الصوت واقتفيت الأثر، فإذا هو علي بن أبي طالب بعينه، فاستترت له، وأخملت الحركة، فركع ركعات في

جوف الليل الغابر، ثم فرغ إلى الدعاء والبكاء والبث والشكوى، فكان مما به ناجى الله:

«الهي أفكر في عفوك فتهون عليّ خطيئتي، ثم أذكر العظيم من أخذك فتعظم عليّ بليتي..آه. إن أنا قرأت في الصحف سيئة أنا ناسيها وأنت محصيها، فتقول: خذوه فيا له من مأخوذ، لا تنجيه عشيرته، ولا تنفعه قبيلته.. آه من نار تنضج الأكباد والكلى، آه من نار نزاعة للشوى، آه من غمرة من ملهبات لظى» [1] ثم أنغمر في البكاء.

أرأيت كيف يربي الإمام نفسه بواسطة العبادة؟ وكيف يمارس النقد الذاتي من خلالها؟ ولا تنس أنه في الوقت نفسه ذلك البطل الصامد الشجاع!.

٢ـ المعركة تدور رحاها بعنف، بين قلة مؤمنة صامدة، هم أصحاب الإمام الحسين عليه السلام ،وكثرة خائنة ضالة هم جيش يزيد.. أثناء المعركة والقتلى يتساقطون من الجانبين.. والأكف تتطاير بضربات السيوف.. والدماء تسيل فتصبغ أرض كربلاء، والشمس تتوسط السماء مسلطة أشعتها اللاهبة.. وفي هذا الوقت الحرج.. واللحظات الحاسمة، يتقدم أحد أصحاب الإمام الحسين واسمه أبو ثمامة الصيداوي، ويقول للحسين: يا أبا عبد الله نفسي لنفسك الفداء، هؤلاء

(١)المصدر نفسه، ١٩٦/٨٤.

اقتربوا منك، لا والله لا تقتل حتى اقتـل دونـك، وأحـب أن ألقى الله ربي وقد صليت هذه الصلاة.

فرفع الحسين رأسه إلى السماء وقـال: ذكـرت الصـلاة جعلك الله من المصلين الذاكرين، نعم هذا أول وقتهـا، ثـم قال: سلوهم أن يكفوا عنا حتى نصلي، ففعلوا، بيد أن قـوم ابن سعد سخروا مـن طلـب أصـحاب الحسـين! واسـتعمل الحسين معهم شتى الأساليب لإيقاف المعركة فـترة الصـلاة.. وأخيراً استجابوا لطلب الإمام الحسين، فتقدم الإمام يصـلي بـبعض أصـحابه، بينمـا يقـوم البـاقون بحراسـتهم، وأثنـاء الصلاة رمى أحد الأعداء نحو الحسـين بسـهم، فتقـدم أحـد أصحاب الحسـين وهـو سـعيد بـن عبـد الله الحنفـي وتلقـى السهم بصدره، ليمنعه عـن الوصـول إلى الإمـام، ولكنـه لم يكن السهم الوحيد، بل تبعه اثنـا عشـر سـهماً تركـزت في جسم الرجل الصامد، الذي سقط شهيداً فور انتهـاء الإمـام من صلاته[1].

هكذا يعبر الحسين بصلاته عن هدفية المعركة.. وهكذا يعلمنا الحسين أهمية العبادة في أحرج الأوقات.

٣ـ الإمام علي بـن الحسـين عـرف في التـاريخ بكثـرة العبادة والدعاء، حتى اشتهر بزين العابدين.. ولكـن كيـف

---

(١)المصدر نفسه، ٤٥/ ٢١.

كانت عبادته؟ وماذا كان يهدف من أدعيته؟.

اقرأ معي هذه المقتطفات الرائعة من أدعية الإمام، ولاحظ الأسلوب التربوي الذي يستخدمه الإمام، من أجل تركيز القيم، وتعميق الفضائل في النفس، وتقمص الفضيلة بواسطة الدعاء.

يقول عليه السلام:

«الحمد لله الذي أدعوه فيجيبني، وان كنت بطيئاً حين يدعوني. والحمد لله الذي أسأله فيعطيني وان كنت بخيلاً حين يستقرضني، والحمد لله الذي أناديه كلما شئت لحاجتي، وأخلو به حيث شئت لسري بغير شفيع، فيقضي لي حاجتي.

الحمد لله الذي لا أرجو غيره، ولو رجوت غيره لأخلف رجائي، والحمد لله الذي وكلني إليه فأكرمني، ولم يكلني إلى الناس فيهينوني، والحمد لله الذي تحبب إلي وهو غني عني، والحمد لله الذي يحلم عني حتى كأني لا ذنب لي فربي أحمد شيء عندي وأحق بحمدي».[1]

«اللهم صل على محمد وآله، ولا ترفعني في الناس درجة إلا حططتني عند نفسي مثلها، ولا تحدث لي عزاً ظاهراً إلا أحدثت لي ذلة باطنة عند نفسي بقدرها.

---

(١)القمي: عباس، مفاتيح الجنان، دعاء أبي حمزة الثمالي، ص٢٥٠، ط١، المصححة، ١٩٩٢م، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت

اللهم صل على محمد وآله، ومتعني بهدى صالح لا استبدل به وطريقة حق لا أزيغ عنها، ونية رشد لا أشك فيها.

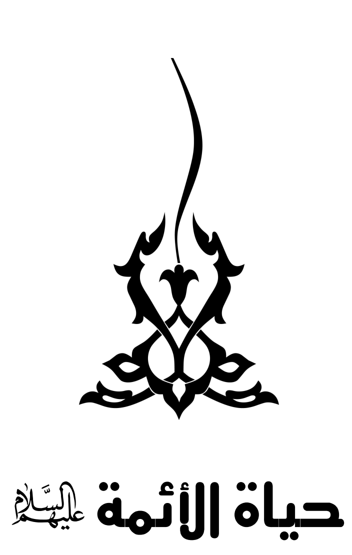
اللهم صل على محمد وآله وسددني لأن أعارض من غشني بالنصح، وأجزي من هجرني بالبر، وأثيب من حرمني بالبذل، وأكافئ من قطعني بالصلة، وأخالف من اغتابني إلى حسن الذكر، وان أشكر الحسنة، وأغضي عن السيئة».[1]

«اللهم إني أعتذر إليك من مظلوم ظلم بحضرتي فلم أنصره. ومن معروف أسدى إلي فلم أشكره. ومن مسيء اعتذر إليّ فلم أعذره، ومن ذي فاقة سألني فلم أؤثره. ومن حق ذي حق لزمني فلم أوفره، ومن عيب مؤمن ظهر لي فلم أستره ومن كل إثم عرض لي فلم أهجره! اللهم. أني اعتذر إليك منهن ومن نظائرهن، أعتذر ندامة يكون واعظاً لما بين يدي من أشباههن».[2]

---

(١)الصحيفة السجادية الكاملة، ص١٢٣ـ١٢٥، ط٤، ١٩٩١م.

(٢) المصدر نفسه، ص٢١٩ـ٢٢٠.


حياة الأئمة عليهم السلام

- حياة الأئمة: عالم رحيب من الفضائل والقيم.
- حياة الأئمة: بحر زاخر من العلم والمعرفة
- حياة الأئمة: تاريخ حافل بالجهاد والنضال، والعمل في سبيل الله.
- حياة الأئمة: صفحات مشرقة بالبذل والعطاء والتضحية.
- حياة الأئمة: منهاج كامل، وخريطة رائعة، للحياة السعيدة.
- وحياة الأئمة: هي بالتالي الإسلام المجسد، والقيم المطبقة، والمبادئ العملية.

ولكن...

ماذا اكتشفت الأمة من ذلك العالم الرحب؟ وكم اغترفت من ذلك البحر الزاخر؟ وماذا تعرف عن ذلك التاريخ الحافل؟ وبماذا احتفظت من تلك الصفحات المشرقة؟ وماذا طبقت من ذلك المنهاج الكامل؟.

إن من المؤلم جداً أن تلاحظ انفصالاً كبيراً بين أجيال الأمة المعاصرة، وبين تراث الأئمة.. وأن تجد إهمالاً متعمداً

لهذه الثروة الضخمة، التي تنطوي عليها حياة أهل البيت.

فأغلبية قطاعات الأمة ـ اليوم ـ لا تعرف شيئاً عن حياة هؤلاء الأئمة العظام، الذين بذلوا طاقاتهم وكفاءاتهم لحماية الدين، ومصلحة الأمة.

الواقع إن مشكلة انفصال الأمة عن قادتها الحقيقيين، وأئمتها المخلصين، علل هذه المشكلة ليست وليدة اليوم، وإنما هي نتيجة أمراض تاريخية مزمنة، نشير إليها في النقاط التالية:

أولاً: موقف السلطات التاريخية من الأئمة، الذين كانوا يعملون على نشر المبادئ الإسلامية الصحيحة، المناوئة لمسيرة الحكم، ولسلوك الحاكمين.

وبعبارة أخرى كانوا يقودون جبهة المعارضة والرفض، لذلك الواقع المنحرف، الذي كانت تعيشه الأمة في عهد تلك السلطات. فهم الذين يغذّون الثورات، ومن بيوتهم ومدارسهم تخرج أكثر الثائرين.

لذلك، فمن الطبيعي أن تحاول السلطات عزل الأئمة، ومنع أفكارهم عن جماهير الأمة، وأن تضرب حول الأئمة وشيعتهم نطاقاً حديدياً من الإرهاب والكبت.

فمثلاً معاوية بن أبي سفيان استعمل كل وسائله البشعة لمنع انتشار ذكر الإمام علي وأحاديثه وفضائله، ولتشويه سمعة الإمام علي فقد أصدر قراراً رسمياً إلى جميع ولاته

جاء فيه: «انظروا إلى من قامت عليه البينة انه يحب علياً وأهل بيته، فامحوه من الديوان، واسقطوا عطاءه ورزقه» ثم شفع ذلك بنسخة أخرى أكثر صرامة وقسوة يقول فيها: «ومن اتهمتموه بموالاة هؤلاء القوم فنكلوا به واهدموا داره»[1].

والأبشع من ذلك فرض معاوية سب الإمام علي عليه السلام على المنابر وخطب الجمعة والأعياد، حتى أصبح سنة لازمة، يعاقب الخطيب إن نسيها[2]!.

واستمر هذا الإرهاب والتضليل الإعلامي ضد الإمام إلى عهد عمر بن عبد العزيز، الذي منع السب والشتم في الخطب. بعد أن تربت الأجيال الناشئة على بغض الإمام علي، حتى لقد أصبح اسمه عاراً وعيباً، فذات مرة جاء غلام إلى مجلس الحجاج بن يوسف الثقفي، وسلّم رافعاً عقيرته، ثم قال: أيها الأمير إن أهلي عقوني فسموني علياً![3].

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ٣/٤٥، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الأولى ١٣٧٨هـ.

(٢) ابن الأثير: علي بن أبي الكرم الشيباني، ج٢ ص ٤٨٨، طبعة أولى محققة ١٩٨٩م، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ٤/٥٨، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الأولى ١٣٧٨هـ.

وصار ذكر أحد الأئمة أو الاقتراب منه شبحاً مخيفاً مزعجاً حتى في المنام والرؤيا. عن الفتح ابن شخرف قال: حملتني عيني فنمت، فبينما أنا نائم إذا بشخصين فقلت للذي يقرب مني من أنت يا هذا؟ فقال: من ولد آدم.

قال: قلت: كلنا من ولد آدم فمن الذي وراءك، قال: علي بن أبي طالب. قلت له: أنت قريب منه ولا تسأله؟ قال: أخشى أن يقول الناس إني رافضي![1].

وحتى الدولة العباسية، بالرغم من أنها قامت باسم أهل البيت، ورفعت شعاراتهم إلا أنها لما عجزت عن احتواء الأئمة، ومساومتهم على مبادئهم، واستشعرت الخطر من وجودهم، وانتشار مبادئهم، بذلت كل جهودها لمحاربة الأئمة، وفصلهم عن جماهير الأمة.

فمرة تحدث نصر بن علي الجهضمي (وهو أحد العلماء والمحدثين) بحديث سمعه عن النبي ﷺ أنه أخذ بيد الحسن والحسين وقال: «ومن أحبني وأحب هذين وأباهما وأمهما كان معي في درجتي يوم القيامة». فلما بلغ الخبر إلى

---

(١) ٥٩ ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن ابن هبة الله بن عبد الله، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق علي شيري ٢٣٣/٤٨، دار الفكر، ط١٤١٥/١هـ.

المتوكل الخليفة العباسي، أمر بضربه ألف سوط!.[1]

وكان منصور النميري أحد شعراء عهد الرشيد العباسي، يتألم كثيراً من الإرهاب الذي تستعمله الدولة ضد أهل البيت، فأنشد أبياتاً قال فيها:

آل النبي ومن يحبهم يتطامنون مخافة القتل
امن النصارى واليهود ومن في أمة التوحيد في أزل

فغضب هارون الرشيد، وأرسل إليه من يقتله، فوجوده ميتاً، فقال الرشيد: لقد هممت أن اخرج لسانه من قفاه، وأراد أن ينبش قبره ويخرج عظامه ويحرقها! فتوسط لديه جماعة فتركه[2].

وبسبب هذا الحصار السياسي والإعلامي الفكري، الذي فرضته السلطات على أهل البيت، ضاع الكثير من تراثهم، وأهمل تاريخهم، وحرمت الأمة من الاستفادة من طاقاتهم وكفاءاتهم، بالمستوى المطلوب.

وثمة نقطة يجب أن نشير إليها بصراحة وهي: أن ذلك الظلم والعداء التاريخي، المضاد لأهل البيت، والصراعات

---

(١) الخطيب البغدادي: أبو بكر أحمد بن علي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ٢٨٨/١٣، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) الخطيب البغدادي: أحمد بن علي، تاريخ دمشق، ج١٣ ص٦٩، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.

التي حدثت في الماضي، بين فئات الأمة الإسلامية، أبقت الكثير من رواسب العداء والنفور من أهل البيت، بدافع التعصب والتقليد الأعمى. فلأني أنتمي إلى مذهب يقدس شخصية تاريخية كانت تخالف أهل البيت، إذاً فلا بد وأن أرفض أنا أيضاً وأهمل كل ما يرتبط بتاريخ أهل البيت وتراثهم!.

ولأني نشأت في بيئة لها موقف خاص من تراث الأئمة، فموقفي الطبيعي إذاً هو موقف أهلي وآبائي نفسه، دون أن أكلف نفسي عناء البحث عن الحقيقة، أو أحاول الاطلاع والتعرف على وجهة النظر الأخرى.

وهذه نظرة خاطئة وغير موضوعية، وقد عاب القرآن الكريم على المشركين اعتناقهم لهذه النظرة حيث يقول: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ۝ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾[1].

والمفروض في المسلم الواعي، وخاصة طبقة الشباب، أن يتجرد من التعصب، والمواقف المسبقة، ومن التقليد الأعمى، وأن يقرأ التاريخ قراءة موضوعية فاحصة، وأن يطلع

(١) سورة الزخرف: ٢٣ـ٢٤.

على تراث أهل البيت، ليكتشف ما فيه من الحقائق الغالية، والمفاهيم السامية، والرؤى السليمة. مستخدماً عقله وتفكيره في معرفة الحق، والوصول إلى الصواب.

ثانياً: المحاولات الاستعمارية.. فلا أحد يشك أننا نحن المسلمين بما نملك من موقع استراتيجي، ومن ثروات طائلة نشكل هدفاً مغرياً للاستعمار.. وأيضاً، فإننا نعرف أن الاستعمار يستعمل كل الأسلحة الممكنة ليس عسكرياً فقط، وإنما ثقافياً واجتماعياً.. ولذا لا بد وأن نعي المحاولات الاستعمارية التي تعمل للحيلولة بين أجيال الأمة المعاصرة، وبين حقيقة تاريخهم الصحيح، ومبادئهم الواقعية. فتستعمل الأقلام المغرضة أو الجاهلة، لتشويه شخصيات الإسلام، وأحداث التاريخ، ولتضفي العظمة والقداسة على بعض الشخصيات الفاسدة المنحرفة.

فمن هذه المحاولات كتابات إبراهيم الجبهان المسيئة للإمام جعفر الصادق ومنها صدور كتاب بعنوان (حقائق عن أمير المؤمنين يزيد بن معاوية)! وكتاب يدافع عن الحجاج بن يوسف الثقفي.

ولهذه الأعمال هدف آخر أشد خطورة، وهو إعادة الأجواء الطائفية إلى حياة الأمة، وإشغالها بتلك الخلافات التاريخية، لإلهائهم عن قضاياهم المصيرية، ومشاكلهم الحاضرة.

ومواجهة هذه المحاولات الاستعمارية المغرضة، إنما تكون باستعمال العقل، والتفكير بموضوعية، واستهداف الحق أينما كان، ومع من كان، دون التأثر بسلبيات البيئة، ولا انفعالات العاطفة.

ثالثاً: الفهم الخاطئ لتاريخ الأئمة وحياتهم.. فكل جيل إنما يكتب التاريخ بمنظاره الخاص، وحسب واقعه ورؤاه، ولأن الجيل السابق كان يعيش واقع التخلف والجمود، وكان رؤاه سلبية غير متفاعلة مع أحداث الحياة، لذا حينما كتب تاريخ الأئمة، انعكست رؤاه وواقعه على كتابته.

فلأنه جيل استسلم للخوف والجبن، وآثر السكوت والجمود، فقد صار يبحث عن مبرر لموقفه الانهزامي، فأخفى جانب النضال والجهاد في حياة الأئمة، بينما أبرز وبشكل مضخم جانب المأساة والألم والاضطهاد في حياة الأئمة، ليبرر بذلك واقعه وحياته الذليلة.

ولأنه جيل انعزل عن مسرح الحياة، واكتفى بالتفرج على الأحداث، دون أن يكون له دور في صناعتها، فقد فسر لنا أحداث التاريخ تفسيراً قدرياً غيبياً لا دخل لتصرفات البشر فيه. فإرادة الله هي التي أسقطت الدولة الأموية، لا نضال العلويين وثوراتهم.

وقدرة الله هي التي أجلست العباسيين على عروش

الحكم، وليس تنظيمهم وتخطيطهم، ونقمة الجماهير.

ومشـــيئة الله أرادت للأئمــة أن يصـــيبهم الاضـــطهاد والإرهاب، لا دورهم الثوري، واتجاههم المناوئ للسلطات!.

هكذا وصـلنا تـاريخ الأئمـة بهـذا الشـكل الخـاطئ، والذي يركز اهتمامه على مآسي الأئمـة ومعـاجزهم الخارقـة فقط! أما دورهم السياسي، وحياتهم الاجتماعيـة، وآراؤهـم العلمية، فهذا لم يكن موضع الاهتمام.

والآن فإننـا في أمـس الحاجـة إلى التعـرف علـى حيـاة الأئمة بواقعها المشرق، وبجميع جوانبها المضيئة، وكل حقولها الثرية.